الحبُّ

فلسفة قلبيَّة

بشار طيفور

قصص قصيرة

الحبُّ
فلسفة قلبيّة

قصص قصيرة

بشار عبد الله طيفور

2021

تصميم الغلاف:
لبنى التكله

التدقيق اللغوي:
محمد عوض بكور

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء:

الأشياء الأولى
لها خصوصية في القلب
ولا تُهدى إلا لمن هم أولوياته..
إلى من أخبرته بأني سأُقرنُ اسمه باسمي
على لائحة عيادتي المستقبلية..
أبي الغالي..
كان لي نصيبٌ بأن أنالَ هذا الشرف
في كتابي الأول..
إلى من اسمها مرادفٌ لكلمة الجنة..
أمي الغالية..
حفظكما الله لي

يبقى الحبّ مجرد فلسفة حتى تلتقي بذلك الشخص الذي يُترجمُ مشاعرك إلى كلمات..

صفحات قلبه..

بعض الأشخاص الذين نصادفهم يضعون علامة فارقة على القلب، وكأنّهم يختمون قلوبنا بتواقيعهم، يفتحون صفحة جديدة داخلها، يضعون في بدايتها أسماءهم، ومن ثم يكتبون قصتهم عليها، ولا تدري أهي قصة حب فقط أم قصة حياتك بأكملها؟!، فواصلهم ونقاطهم قادرة على أن تتحكم بك، يرسمون بآخرها نقطة تمنع القلب من الخروج منهم، أو أنت من تضعها لكي تمنعهم من الخروج منه...

ولربّما هم ليسوا صفحة في القلب فقط، بل كتابه بأكمله.

وكذلك هي كانت كتاب قلبه، وصفحاته البيضاء التي يحفظها لها حتى تكون وحدها أول من يكتب تلك القصة حلالاً، وكانت هي له الفاصلة والنقطة وإشارة الاستفهام التي تسأله بها عن حاله..

وعن سؤال: "هل تحبني؟" فيأتي الجواب جاهزًا في الحال، سيجيبها:
[أنتِ كل ما أملك فهل يُغني سؤالكِ عمّا في قلبي؟!]

ويومًا ما كانت تجلس إلى جوار كتفه، قُربَ قلبه، وهو يتساءل: تُرى لِمَ يخفقُ قلبي كل هذا؟!، كان يهمس له لكي يهدأ، لكن ما النفع إن كان يعرف الجواب منذ أن رآها قبل عامٍ مضى، هو يعرف أنّهُ وقع بها إلى الحد الذي لم يعد بالإمكان أن يهمس بهذا الصوت إلى قلبهِ فيطيعه، وكانت هي الأخرى أيضًا على الطرفِ الآخر تعرفُ ذلك الشاب الذي يعتبرها الدنيا بما فيها.

كانت تبدو لهُ دائمًا كالوردة التي تسكن بستانه المجاور، كان لا يريد أن يقطفها فتذبل وتضيع من بين يديه، بل أرادَ لها أن تكبر... تكبر حتى يُلقيها اللهُ في بستانِ قلبه، فتبقى معلّقةً بأغصانه إلى آخر العمر.

وهو أيضًا كان يجيد الصمت.. ذلك الصمت الطويل الذي يكون سيد الموقف معها حينَ يراها، لكن كان هذا الصمت مختلف عمّا نعرفه، كان صمتٌ لحبالهِ الصوتية فقط، لم يلفظ لها وقتها ببنتِ شفة، لكنّه لم يكن قادرًا على إيقاف تلك المناجاة التي تقع في قلبه، والدمعات التي كبحها قبل أن تسير على خدّيه.

كانت تبدو لهُ حينها متعبة.. متعبة جدًا، وكأنّ الحياة قد جارت عليها وأرهقتها حتى اعتصرَ قلبهُ ألمًا قبل قلبها، كان يودُّ لو يقول لها وقتها: هاتِ ما ألمَّ بكِ من تعبٍ؛ أنا أحملهُ عنكِ، وإن لم ينفع هذا، فسأشقُ لكِ صدري لأخرج لكِ قلبي على الفور فأنتِ أولى به، ولا قيمة له أساسًا إن رآكِ بتلك الحالة، بدأ قلبهُ يعرجُ بها إلى السماء، يهمسُ بها بدعوة..

وهل خلا دعاءٌ منها منذ أن رآها؟، لا يعتقد أنّهُ فعل ذلك.

وفي ذاتِ الموقف، وذاتِ القرب، هذا القرب الذي يجعل قلبه يُحلق في عالم آخر، يغيب عن تلك الدنيا وظروفها وقسوتها، فتكفيهِ هي عن هذي الدنيا الفانية، كانت هذه المرة في جلسة التعارف ما قبلَ الخطوبة، لكن هذه *المرة* تحطمت كل حواجز الصمت تلك حينَ نظرَ إليها للمرة الأولى بمنزلِ أبيها.. باحَ لها بكل ما لديه، وكأنّهُ كان يعوضُ سنواتَ الصمت التي مضت.

وموقفٌ مماثل جمعهما عندما كانت يدهُ تعلو يدها الرقيقة لتحضُنها، وأصابعهما متشابكة، المكان فقط مختلف، الآن هي تجلسُ إلى جواره في الطائرة، ظهرَ لهم صوتُ مضيفة الطيران وهي تردد على الإذاعة:

- السادة المسافرون إلى مكة المكرمة، الرجاء ربط الأحزمة استعدادًا لإقلاع الطائرة.

ساعدها بربط الحزام وأرخى ظهرهُ إلى المقعد لكي يريحه قليلاً، وأخذَ بعدها يرمقها بنظراتٍ يُطمئنُ بها قلبه، يضع عينيهِ في عينيها فترتوي روحه العطشى، تلك التي لم تقوَ على الالتفات منذ سنوات، كانت عادتهُ ككل عام أن يهمس لها بذلك الموقف، فالآن لا صمت يحول بينهما.. ضحكَ لها فبادرتهُ قبل أن يفيضَ بما في قلبه، قائلة:

- هذه السنة حان دوري لأذكرك، الحب ليس بالكلام فقط، سأعبر عنهُ بطريقة مختلفة الآن كأن أميلَ رأسي إلى كتفكَ ليحتضنهُ.

تُدهشهُ كعادتها وكيف لا تفعل؟! وكل كلمة منها غالية ومدهشة.

مالَ رأسهُ إلى رأسها، وراحت تحكي لهُ ما دار في نفسها حينها، حتى غفت على كتفه فاحتضنها.

كان صديقهُ يستعجلهُ للخروج، استيقظ قلبه من مناجاتهِ على أسى وكتفه يفتقد رأسها وكتفها، ويدهُ وحيدة تتوق لنعومة يدها، رحلت هي وأخذت قلبهُ معها، مالها وكأنّهُ أحد ممتلكاتها! لكنّهُ كان يعرفُ أنّ هذا صحيحٌ لهُ بالفعل فهو يفرحُ إذا أعطاها قلبه، ورحلَ هو وادعًا إيّاها بدعوة كي يردها اللهُ لقلبهِ حلالاً.

الحب
فلسفة قلبية

عمتِ مساءً يا صديقة القلب..

أكتب الآن في ليلة صيفية في الرابع والعشرين من مايو، نسمات من الهواء البارد تُلاطفُ حرَّ جسدي، وقررت أن أبُحِرَ بالكتابة عنكِ فكل شيء هنا يفتح شراهة ريشتي للكتابة ويذكرني بكِ.. صفاء السماء، لمعان النجوم، ضوء القمر، والنسيم الذي يشتق هدوءهُ منكِ..

أتذكرُ موعدَ لقائنا الأول بعد الخطوبة، فتلك تفاصيلٌ ترسخ في عمق ذاكرتي، ففيها انتهى كبرياءُ الأنثى في الحب ليحلّ مكانه حبّكِ..

في كلِّ مرة تسبقُ اليوم وفي كل لقاء تفتتحين أنتِ باب الأسئلة، فتُبحرين في التفاصيل ووجهات النظر، لكن في هذه المرة كان الأمر مختلف، كنتُ أنا أول من افتتح الحديث في ذاك اليوم، كان هناك سؤال في قلبي أعرف جوابه من بريق العينين التي وقعت في أسرها، لكن ليطمئن قلبي أو ليُطربَ مسمعي لا أعلم، فكلا الأمرين مُنتهاهما واحد إلى كلمة أتوق إلى سماعها منكِ "أحبك"، "تلك الكلمة التي لطالما أصمّها عن مسمعي كبرياء الأنثى الغريب".

- "الحب فلسفة قلبية لا يفهمها عقل المحب".

كانت تلك بعض الكلمات السريعة التي حاولتُ أنا أُقحم فيها الفلسفة لأفتح لنفسي باب السؤال.

أتابع بعدها الكلام بعفوية الحب بسؤالي لكِ:

- وأنتِ بماذا تعرفين الحب؟

كان الحب الذي أطلب تعريفه بيّنًا على ملامحكِ، بريقُ العينين الذي يُنير عتمتي.. رشفات البن البريئة الموجّهة من عينيكِ، وأخيرًا ضحكتكِ التي تُظهر خدّيكِ الممتلئين اللذين هُم أصل الحكاية، لكن هو القلب يطلب الاطمئنان كعادته.

تُطرقين نظركِ بحياء، ثم ترتشفين بعض القهوة في محاولة لأن تُخفي ارتباككِ، ثم تُجيبين:

- الحب هو الأمان! كأن تسند كتفك إلى من تحب فتلقاه جبلك الثابت في كل الظروف، أن تحبه فيضاعف لك الرِبا في الحب، أن تقسا عليك الأيام فيلين لك حضنه، وأن يُحاربك ويخالفك كل الناس فتجده هوَ هوَ بظنِّ الحب الذي عاهدته عليه، الحب أن تكبر ويرحل جمال جسدك وتقسو الأيام على صحتك فلا تجد نفسك بنظره إلا كما التقيته أول مرة، الحب كلمة كبيرة يا أحمد لكن الأمان هو عمادها، وأنتَ يا أحمد هل توافقني الرأي؟!.

كان بنهاية جوابكِ شيءٌ ما يربتُ على قلبي، رأيتُ فيكِ تلك المرأة التي بعينيها حبٌّ لا يُشيبُ من أحبّتهُ بقلبها، كانت كلماتكِ تلك كافية لأن يطمئن قلبي.

قلت لكِ حينها وأنا أرد عليكِ:

-الحب هو أنتِ وحبي هو كتفي لكِ، لا يقسو عليكِ ولا يلينُ لسندكِ ودعمكِ..

أضفت وقتها أيضًا:

- كلمة أحبّك أليست ضرورية أيضًا في الحب؟.

اعتدلت ملامحكِ وقتها بابتسامة رقيقة وأنتِ ترددين:

- لقد عرفت حيلتك من البداية: أحبّك، وحقًا الحب فلسفة قلبية لا يفهمها عقل المحب.

لا قصة تكتمل
بلا حب..

جلستُ على طاولة الكتابة خاصّتي وبجواري أصدقاء عملي، قلمي، أوراقي، وفنجان القهوة.. أمسكتُ القلم لأشرع بكتابة عنوانٍ ومقدمةٍ لروايتي الجديدة، هذه المرة الأولى التي أشعرُ بها في صعوبةٍ باختيار اسمٍ مناسبٍ لها، لأنّني أشعر أنّها مختلفةٌ عن سابقاتها، أكتب اسمًا ثم أشطبه، ثم أعيدُ العملية كرّةً أخرى.

تدخلين الغرفة وأنتِ تحملين كوبين من الشاي الساخن، أعادت لي تلك اللحظة ذكرى لنا منذ عشر سنواتٍ مضت عندما كُنّا في أيام الدراسة الجامعية، قَدمتِ لي وقتها وأنا أجلسُ على مقعدنا المعتاد أُذاكر معلوماتي للامتحان، قلتِ لي حينها وأنتِ تبتسمين بسمة ما بين المزاح والإعجاب:
- اشرب فنجان الشاي هذا، سيعينك على التركيز جيدًا في الامتحان، خصوصًا أنّهُ مني، لا تنسى!.

كُنتِ تضحكين بنفس الضحكة عندما كُنتُ أذكّركِ بتلك اللحظات..
- سبحان الله كم مرَّ على هذي الأيام
قلتِها بلهجة الحمد حينها

احتضنتِ كوب الشاي بلطف وأنتِ تختلسين النظر إلى ما أكتبه ثم سألتِ بفضول:
- اممم، لعلّها روايتك الجديدة التي أخبرتني عنها هل انتهيت منها؟.
- أصبتِ يا شام، الحمد لله أنهيتها، لكني أفكر باسمٍ ومقدمة لها وهذه أكثر مرة أصاب بها بحيرة!.. وكما تعلمين فإنّ اسم الرواية ملفتٌ جدًا للقارئ ويلعب دورًا كبيرًا في اختياره لها، وكذلك المقدمة!

- اممم..

قلتِها بلهجة ثقة تمتزجُ بالمزاح وأنتِ تزمين شفتيكِ، ثم أردفتِ:
- أخبرني عن قصتها لعلّي أعطيكَ القليل من خبرتي.
رددتُ عليكِ ببسمة خفيفة وقتها :
- هذه أنتِ يا شام تعجبني ثقتكِ بنفسكِ، حسنًا أصغي إليّ إذًا.
تابعتُ الحديث بجدّية:
- تدور أحداث الرواية كالعادة في حوار بين شابٍّ وفتاة لتنتهي بقصة حبٍّ وزواج بينهما.

قاطعتِ كلامي وقتها بسؤالٍ فضولي، يبدو أنّهُ كان يدور في عقلكِ منذ زمن بعيد:
- أعتذر عن المقاطعة لكن لماذا تتعمّدون أن تكون أغلب الروايات تدور حول قصص الحب، أليس هنالك مواضيع أخرى تتحدثون عنها؟!.
أضفتِ موضحةً غاية سؤالكِ:
- ولا أقصد التقليل من شأن تلك الروايات لكنّه فضولي الدائم كما تعلم.
- أحسنتِ يا شام ، سؤال ذكي.. وكثيرًا ما يخطر لي فأسأل نفسي:

"أن لماذا أكثر ما أكتبه وأكثر ما يقرأه ويحبّه الناس هو عن الحب؟!"

تنهدتُ ثم أكملت:

- الجواب هو الحبّ ذاته يا شام
أقرب الأشياء وأكثرها شغفًا لنا هي تلك التي نحبّها،
يحارب الناس لأجل ما يحبون دائمًا، فلا يُبدع الشخص بمجالٍ ما إذا لم يحبّه... وكذلك فإنّ الكون بدأ بقصة حب بين أبينا آدم عليه السلام وأمّنا حواء، فالحب بداية لكل شيء!.

أنهيتُ جوابي، ودارَ في نفسي أن أعجبني ما قلتهُ لكِ، سأكتبهُ فور أن ننتهي!، فرددتِ عليّ بثقةٍ تعلو نقاشكِ:

- كيف؟، ألا يوجد مواضيع أخرى كالحرب والفقر مثلاً.

- بالتأكيد يا شام لكن اسمعيني:

في كل قصة أرغب بكتابتها أحتاج إلى الحب في قصة البطولة، كل شيء لا يختلط فيه الحب أشعر بنقصانه.. من ثم أسألكِ.. هل أستطيع أن أكتب عن الحرب بلا أن أضع قصة حب الجندي وزوجته.. كيف سيكون للحرب مشقة وللعودة إلى الوطن لذة بلا زوجة يشتاق لها أو أم تنتظر عودته؟ هل سيكون لتلك الرواية معنى؟، لا أدري لكن لا أستطيع تخيل إتمامها حتى، الحب هو الوسيلة التي نوصل من خلالها رسالتنا.

كان كلامكِ ذاته الذي يُثلجُ صدري دومًا ذاتهُ، أجوبتكِ اللطيفة غير المتوقعة تجبر قلبي، قلتِ لي وقتها بحبٍّ بان في كلامكِ:

- بالتأكيد لا، كما لا أستطيع تخيل حياتي من دون قصة حبّك فلتسمّها إذًا: امم.. لا قصة تكتمل بلا حب.

ما بين

الحب والطب

"عملية جراحية"..

كانت حالة من الارتباك تسري على وجوه الطاقم الطبي الذي أجرى التقييم الأولي لمريضة وصلت مؤخراً إلى قسم الإسعاف الجراحي، والتي كانت في حالة حرجة وبحاجة إلى عملية جراحية قلبية طارئة، ولسوء الحظّ وعند الكشف عن هويتها، كانت تلك المريضة هي وعد زوجة الطبيب أحمد أحد أفراد الطاقم الطبّي..

وما زاد الأمور سوءًا وقتها أنّ أحمد كان طبيب جراحة القلب الوحيد الذي يمكنه إجراء مثل هذا العمل الجراحي الطارئ في ذلك الوقت.

لم يكن الجراح أحمد على عادته وقتها، كلماتٌ ثقيلة كانت تقع على مسمعه في تلك الليلة التي كانت نقطة تحول مهمة في مسيرته الطبية والزوجية، مئات بل آلاف الحالات تلك التي مرّت جراحتها بين يديه، لكن في ذلك اليوم كان الأمر عسيراً ليس على عقله فقط بل على قلبه أيضاً.. المريضة صاحبة الجسد المسجّى على طاولة العمليات الجراحية كانت وعد.. وعد تلك الإنسانة الرقيقة التي يخاف عليها من نسماتِ الريح والتي تشغل قلبه وحياته كلّها، تُصارع الحياة والموت اليوم بين يديه**!**، دموعٌ غزيرة كانت تنصبُ من مقلتيه على قلبه مباشرة فتحرقه لحادثٍ أصاب زوجته تارة ولمشرط جراحي سيشق جسدها أخرى.

يُمسِكُ أحمد مشرطه الجراحي "ذاك الذي كان رفيق دربه طول مسيرته الطبية"، لكنّ قبضته ليست قبضة حزم وإصرار ككل مرة.. فقبضتهُ اليوم هي قبضة صراع بين العقل والعاطفة.

الأمر الآن ليسَ كيدِها التي تُجرح عن طريق الخطأ بالسكين أو نوبات الحمى التي تعتريها فيُمضي عليها الليل بطوله ليُداري حبّ حياته، فكيف له أن يسمح لشفرته الجراحية تلك بأن تشقَّ جسد حبيبته؟!..

"أخلاقيات مهنته وعواطف قلبه كلّ تلك الأمور كانت تحول بينه وبين بدء العملية، لكن للضرورة أحكام هكذا كان حكم عقله وقتها!".

سيلٌ من الألم كان قد غمرهُ أيضاً عندما كان يتذكر كلامها له في الصباح: أحمد إن حصل لي مكروه ما، فلتقرأ لي في كل يوم صفحة من القرآن "كان شيئاً من القلق قد نهش قلبه حين رد عليها وقتها: بعيد الشر عن قلبك حبيبتي".

يشرعُ أحمد بالعمل الجراحي وشهادته العريضة وزمالته البريطانية كلّها كانت عاجزة، فذخيرته الوحيدة التي كان يمتلكها هي تمتمة الدعاء التي لا تفارق لسانه وضحكة وعد التي كانت الأمل الوحيد الذي يختبئ وراء كل تلك الحكاية.. يشق الجلد، ثم يزيح الأربطة والعضلات ليصل إلى القفص الصدري، كان أنينُ المنشار الكهربائي يقصُ خفقات قلبه مع كل ضغطة على زناده وكأنّما أحدٌ يقتلع قلبه بقوة، يصل إلى عضلة القلب، ليُجري العملية على تلك المضغة التي لطالما أحبّته منها "كم كان من الصعب أن يمسك قلب حبيبته بيده".

الساعة الثالثة من العملية تدق، وصبيب العرق والبكاء أضحى واحد لا يمكن التمييز بينهما "كان اليقين الوحيد لديه هو أنّها تحت عناية الله الشافي طبيب السموات والأرض قبل أن تكون بين عناية يديه."

تتخافت النبضات درجة فأخرى لتستقيم النبضات على جهاز التخطيط فيعلو دوي صفير الإنذار غرفة العمليات.

كان نداؤه الصادق قد أسمعَ السماء وقتها:
"أن يارب هي مريضتك وأنت طبيبها فأنقذها يا الله، اللهُم رب الناس أذهب البأس أشفِ أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يُغادر سقماً."

فأتى صداه معجزة جديدة قد حققها الله لهما عندما تعالت النبضات على الجهاز بعد الصدمات الكهربائية وجرعات الأدرينالين المُركّز التي حقنها إياها.

كانت تلك القصة التي يرويها أحمد لوعد على مائدة الفطور وهو يقول لها بحبٍ زاده اليقين في قلبه:
- الله قدرَ حبّنا فجمعنا والله أهداني حبّكِ مرة أخرى بعد تلك العملية بمعجزة أخرى .

الحب
أبجدية قلبية

عُمتِ مساءً يا صديقة القلب..

أرجعُ بكِ إلى ماضٍ قديم، والمرءُ حينما يجولُ في أروقةِ الذاكرة تصيبهُ نفحات الذكريات فتُحيي قلبهُ من جديد.

"أتذكُرْ؟" كم تعيدُني تلكَ الكلمة إلى مُتسعِ الأمل بعد ضيقِ اليأس، فالمرءُ حينما يتذكرُ الماضي يعرفُ أنّ لا حال في الحياة يدوم، وما من معضلة في الحياة إلا وكان لها حل فأنَّى لهُ أن يقنط؟!

وبما أن الحديث عن الذكريات وأنتِ من هواتِها، فما من ذكرى لنا إلا وقد دونتِها في مذكرتكِ، فدعينا نغرق الآن ببحرِ الذكرى.

ذكّرتني ورقة تخطيط القلب التي كُنتِ تتفحصينها بين يديكِ بذكرى قديمة، قلتُ لكِ وقتها وأنتِ غارقة في التشخيص:

- أتذكُرين؟!

رددتِ بضحكة باغتتها حلاوة الذكريات وقد رفعتِ رأسكِ تنظرين إلي:

- ابن سينا؟!

- وداءُ العشق..

- وهل يُنسى!.

دعيني الآن أعودُ بكِ إلى تفاصيلِ الموقف فعلّي أُشفى بكِ، كُنّا حينها في السنواتِ الأخيرة في كليةِ الطب، كان وقتها الستاج الأول لمادةِ أمراضِ القلب؛ وكانت الجلسة عن قراءة تخطيط القلب.

وقفنا بعد الجلسة محاولين فك شيفراتِ التخطيط لورقة عرفنا بعدها أنّها حالة نقص تروية قلبية عابر، قُلتِ لي حينها بلهجة مزاحٍ ساخرة:

- تفضل حضرة الطبيب لنستعين بالقليل من خبرتك!

عدلتُ وضع نظارتي الطبية وقُلت لكِ:

- اممم، دعيني أرى عزيزتي.

- كيف سنقرأ تلكَ الطلاسم إذاً؟

- لكل شيءٍ في هذه الحياة أبجدية خاصة، فالطيور والأسماك تتكلم بلغة لا يفقهها الإنسان أبدًا، وللقلبِ لغة لا يفقهها إلا الأطباء ولنفهمها علينا أن نتعلم أبجدية القلب أولاً!

- فهمتُ ذلك، تقصدُ أنّ التخطيط لغة مكتوبة بحروفٍ خاصة، وهي تلكَ الموجات التي تعلمناها في مادة الفيزيولوجيا، الموجة Qو S و R و Tو P

بدأتِ وقتها بالبحثِ عن كل موجة على حِدة محاولةً بجدية تشخيص الحالة، لكنّكِ وقفتِ بعدها تتساءلين:

- الآن وقد قرأتُ وفهمتُ الحروف، لكن لكل مرض لغة خاصة علينا أن نعرفها لنعيَ ذلك المرض، أوه عملية معقدة جداً!

- تماماً كما تعلمنا الحروف العربية ومن ثم عرفنا الأشياء بها، فلا لغة تُقرأ بلا أبجدية!

أضفتُ وقتها ممازحاً إيّاكِ:

- أرى أنَّ الحبَّ أبجدية قلبية، فهل يمكنكِ قراءة حبي لكِ على ورقةِ التخطيط حضرة الطبيبة؟!

- لا أعتقدُ ذلك عزيزي الكاتب.

أجبتكِ واثقًا بعدها:

- أوَلم تقرأي عن ابن سينا وذلك الفتى الذي عجزَ عنهُ الأطباء، فجلب لهُ شخصاً خبيراً بأسماء المناطق ثم طلبَ منه أن يذكر على مسمعه كل أسماء الأحياء المجاورة إلى أن وصلَ إلى الحي الذي تسكن به حبيبتهُ، كان يعاني من داءِ العشق وقتها!.

- بلى، ولكن ابن سينا شخّص ذلكَ عن طريقِ تحسّسِ نبضه ولم يكن عنده لا سماعة ولا جهاز تخطيطٍ آنَذاك.

- إذاً كانتَ لغة الحب تُحسُّ بالنبضِ، وتلكَ النبضات هي لغة جديدة على جهازِ التخطيط، أعتقد لو أنّ ابن سينا أدركهُ اليوم، لأدرجَ لغةَ جديدة على تلك الورقة سمّاها لغة العشق.

- لعلّهُ كذلك إذاً!

سقى اللهُ تلكَ الأيام، كم مرَّ العمر بسرعة، كانَ التخطيط الذي تقرأينه لقلبي وقتها، تِلكَ هي سنةُ الكون، نكبر وقلبنا كجسدنا يمرضُ من مشقاتِ الحياة.
- ما تشخيص مريضكَ إذاً حضرة الطبيبة؟

- امم، العضلة القلبية سليمة والتروية أيضاً جيدة.

- أولا تقرأين على الورقة اسم شخصٍ ما أيضاً؟!

أمسكتُ الورقة من يدكِ وقلتُ لكِ تلك هي حروف اسمكِ على الورقة، فقلبي يخفقُ بأبجدية حبّكِ.

لكن هذا المريض بحاجة لجرعة حبٍّ منكِ دائماً حضرة الطبيبة وإلا توقف قلبه عن العمل، فلا تتركيه.

مريم

"قصة يقين"..

عُمتِ مساءً يا صديقة القلب

هُنالكَ اشخاصٌ في هذا الكون خُلقوا ليتركوا أثر الحب والسعادة في قلبِ كل من صادفوه، وكأنّ اللهَ سخرهم كلطفٍ خفيّ منه ليدحضوا مرارة هذا الكون، فتراهم أينما حلّوا يصنعون معروفًا، يمسحون دمعةً، يجبرونَ كسرًا، ويجمعونَ مشتاقًا، ويُقيلون مُتعثرًا، وكأنّ لذة العطاء تتملكهم، حتى ولو بقصصهم..

وأنا أحسبُني دائمًا مشتاق، وبحاجةٍ لشيءٍ يجمعنا.. لصدفةٍ على غيرِ معياد، للحظةٍ يتوقفُ فيها الكونُ وشعاعُ عينيكِ يقابل عينَيَّ فيُضيء شغفي، لمكالمةٍ تحملُ اسمكِ فيتبعها "مرحبًا" بصوتكِ تُشفي صُمَّ الشوقِ الذي أصابَ أُذُنَي! وهذا حبّي لكِ يجبرني أن أخرج ليس فقط عن سياقِ النص لأحكي عنكِ، بل عن سطورِ الحياةِ بأكملها لأكتب قصة حب فيها أنا وأنتِ فقط، بلا أن تحول بيننا تلك الحواجز القاتلة.

.

.

.

ولنعود الآن إلى أولئكَ الأشخاص، لن تغيبَ عنكِ في هذا الحديث "مريم" تِلكَ الطفلة التي جمعت قلبينا على غيرِ ميعاد، "تعرفين؟، دائمًا ما أقول أنّ الأطفال هم مصدر السعادة في هذا الكون، قلوبهم نقية لا تختلطُ بسوداءِ الدنيا وأحقادها أبدًا!".

كنتِ تقفين على مسافة فاصلة منّي دائمًا، وترينَ أثارَ الجمرِ المستعر في صدري على عينَيّ اللتين تبوحان بحبّي لكِ، أمّا أنتِ فقد كُنتِ تتقنين فنَّ كبرياءَ الأنثى بالكامل، ذلكَ الحبُّ الذي يملأُ جوفكِ كانَ مُستترًا بمزيجٍ غريب من الكبرياء والحياء، يشغفُ قلبكِ..

-"حسام" و"شام" كلاكما اليوم في المناوبة في قسمِ الأطفال.

قالها رئيسُ القسم الخاص بنا في المشفى ثُمَّ انصرف من عملهِ، وكأنّهُ قد أعطاني أملاً جديدًا للحياة، أخيرًا سأزيحُ جمرة الكتمانِ عن قلبي "تِلكَ التي ستُحرقني إن لم ألفظها"، وأفصحُ عن حبّي مرة أخرى وأحدّثكِ عن موضوعِ الخطوبة التي طالَ تأجيلها.

أسدلَ الليل ستارهُ على حيوية النهار، وهدأَ كل ركنٍ من أركانِ المشفى، ولم يبقَ إلا الطاقم الطبّي المناوب، ألقيتُ عليكِ نظرةً وأنتِ تكبحين تثاؤبكِ بخمول، ثُمَّ قلت لكِ:

- تبدين متعبة اليوم!

- لم أنم إلا ساعات قليلة.

- بإمكاني أن أشغلَ مكانكِ الليلة.

قلتها لكِ مواسيًا وأنا أتمنى أن تجيبي بلا، لئلا يفارقني قمري في هذه الليلة فأبيتُ منطفئًا لوحدي، فرددتِ عليّ بابتسامة مريحة:

- لا.. لا بأس، شكرًا لك، قد يكون هُناكَ حالات إسعافية مهمة لمجالنا.

وما إن أنهيتِ الجملة حتى سمعنا أصواتًا لأمٍ تستغيثُ على باب الإسعاف الخاص بالمشفى:

- ابنتي.. ابنتي.. أنقذوها أرجوكم.

كانت حالةً إسعافية لطفلة صغيرة لم تبلغ الخامسة من عمرها بعد، كانت تبدو كالملاك بين يدي أمّها وهي تحملها قادمة بها إلى الإسعاف، فهرعَ إليها الطاقم الطبّي بأكمله على الفور ليضعوها على سرير الإسعاف المتنقل ويبدؤون عملية الإسعافات الأولية..

كُنتُ يومًا عن الآخر أراكِ بكل أحوالكِ، شام الغاضبة، الرقيقة، العاطفية، والطبيبة الإنسانية، وكانت كل حالةٍ من حالاتكِ تلك تتطلب قلبًا كاملاً ليحبّها، وبطريقة غريبة كان قلبي يتسعُ لكل أحوالكِ".

- "نادوا إلى الأطباء المختصين".

صرخت إحدى الممرضات بصوتٍ مسموع ونحنُ نهرول باتجاه الطفلة، وقفنا على سريرها وهي فاقدة للوعي تمامًا، بادرتِ أمّها بالسؤال وعلى وجهكِ علامات قلقٍ وكأنّها ابنتكِ:

- ماذا حصل لها خالة؟

قالت الأم بصوتٍ مُنتحب قاطعته دموعها المنهمرة على ابنتها:
- غفلنا عنها وبجوارها علبةٌ لإحدى المنظفات "الكلور"، وعدنا بعد دقائق قليلة لنجدها غائبة عن الوعي وغطاء العلبة مفتوح، يبدو أنّها استنشقت .. مسحت الدموع المنهمرة من عينيها ثُمَّ أكملت:

- يبدو أنّها استنشقتها أو شربت شيئًا منها.

- لا تقلقي خالة، هي حالة عابرة ومتكررة سنتدبر الأمر إن شاء الله، شام جهزي جهاز الرذاذ الاصطناعي بينما أتدبر عملية غسيل المعدة.

قلتُها مواسيًا لتلكَ الأم المكلومة، والتي بدت منهارة بالكامل على ابنتها الوحيدة، كانت تتمتم بالدعاء لها طوال الوقت، ولا شفاءَ مثل دعاءِ الأمهات.

شرعنا بعدها بالإسعافات الأولية، طلبنا لها بعض التحاليل الإسعافية، مع صورة شعاعية بسيطة للصدر، وأتممنا عملية غسيل المعدة من المحلول الكيميائي، وأخيرًا زودنا الطفلة بقناع الأوكسجين لضمان سلامة عملية التنفس عندها، لم تغيبي عن عينَيَّ وأنا أرى رقّتكِ تلك في عملكِ، ولم يكن هذا التميّز الذي تُريني إيّاهُ عيني غريبًا، فدائمًا أنتِ نجمتي الوحيدة اللامعة بين كل النجمات في هذا الكوكب.

تنهدنا بارتياح بعد التأكد من سلامتها، وقلتُ لأمها:

- الحمد لله، حالتها مستقرة الآن، قمنا بعملية غسيلٍ للمعدة وأعطيناها بعض الأدوية الإسعافية، وستصحو بعد قليل إن شاء الله.

- لك الحمد يا الله، لك الحمد على سلامة ابنتي، وكل الشكر لكم.

قالتها الأم وهي تمسح عن مقلتيها دموعًا مِزاجها الحمد والفرح .

- ما شاء الله! تبدو كالأميرة الصغيرة، ما اسمها؟ ..

قُلتِها للأم مُلاطفةً إيّاها في مصابها، كانت تبدو أنّها سيدةٌ أربعينية، وقد أنجبت وحيدتها في سن متأخرة..

- مريم..

قالتها ورمقتْ يديكِ بنظرةٍ سريعة باحثةً عن محبسٍ يُعانق بُنصركِ، يبدو أنّها ستتخيرُ لكِ دعوة مناسبة.

فقالت لكِ بعد أن أدركت أنّ فارسَ قلبكِ لم يطرقْ بابهُ بعد:
- رزقكِ اللهُ بزوجٍ صالح، وبملاكٍ صغير كمريم.
توردت وجنتيكِ فأجبتِها بخجل:
- اللهُمَّ آمين، شكرًا لكِ خالة.
كانتَ ابتسامتكِ التي أتت على استحياءٍ، قد حرّكت جذوة الحبِّ التي تختلجُ في صدري، فهمستُ بصوتٍ خفي لا يُسمع:
- آمين، وأكون أنا زوجكِ وأب طفلتنا "مريم".

يبدو أنّ اسم مريم وقتها قد تناهى على مسمعكِ حينها، فسألِتني:
- هل قُلتَ شيئًا للتو، لم أسمع؟ ..

اعتدلت ملامحي واعتلت الخلجات المضطربة في صدري فأجبتكِ بنبرة مرتجفة:

- آه، لا كُنتُ فقط أقول أني أحلم أيضًا بأن يكون لي طفلة اسمها "مريم" من الفتاة التي أحبّها ..
وأردفتُ في قلبي بصوتٍ لا يسمعهُ إلا الله:
- "تُشبهكِ وتكونين أمّها"
أطرقتِ رأسكِ بحياءٍ ولم تعلّقي، فقد كُنتِ الوحيدة التي تعرف أمنيتي التي يختلجُ بها صدري، والتي كانت أنتِ ..
يبدو أنّ "أم مريم" قد لاحظت تعلق قلبي بتلك الأمنية وتلك الفتاة، ولرُبّما عرفتها من نبرة صوتي الحزينة، فعلّقت:
- الله كريم يا بُني، سيُحقق لكَ ما تحلم به بإذنه ..

فعلّقتُ على قولها: ونعم بالله.

يبدو أنّ الحنينَ لفرحةِ عوض الله قد ملأت قلبَ "أم مريم" بالحمد فأخذت تسرد لنا قصتها وكأنّ اليقينَ قد تملّكَها وقتها:
- تزوّجنا أنا وزوجي "باسم" رحمهُ الله ..

مسحت عينيها التي اغرورقت بالدموع وهي تذكر زوجها المتوفي بعد أن دعونا لهُ بالرحمة "بدت وكأنّها تحبّهُ حدَ الموت"، ثم أردفت:
- تزوّجنا عن قصةِ حبٍّ أتت بعد الخطوبة، كُنتُ في العشرينَ من عمري عندما تزوجتْ، وأنجبتُ "مريم" في الثامنة والثلاثين.
علّقنا بصوتٍ واحد وكأنّنا قد اتفقنا مسبقًا:
- ما شاء الله!

تابعتْ "أم مريم" قصّتها قائلة:

- كان زوجي يحبّني كثيرًا، وحملتُ بعد سنةٍ بطفلنا الأول، كان من المفترض أن يكونَ طفلاً، لكنّهُ تُوفّي وهو في بطني في شهرهِ السادس بعد أن تعرضتُ لحادثِ سيرٍ مفجع، أخبرني الأطباءَ بعدها أني لن أستطيع الإنجاب طِوال الحياة، كُنتُ وقتها على بُعدِ أشهرٍ قليلة لأُلمسَ طيفَ الأمومة وأكون أمّاً، لكنّها خيرة الله دائمًا وأبدًا، إلى الآن أذكر كلمات ذلك الطبيب الوقور الذي عزّاني في مصابي وذكرني بحديثِ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (إذا مات ولد العبد المؤمن قال الله للملائكة: قبضتم ولد عبدي ؟ قالوا: نعم قال: قبضتم ثمرة فؤاده ؟ قالوا: نعم قال: فما قال ؟ قالوا: استرجع وحمدك قال: ابنوا له بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد)، جعلكمُ الله من أولئكَ الأطباء الذين يتقنون فنَ جبرِ قلوبِ مرضاهم، وأنا اليوم أعزي نفسي بوفاةِ زوجي بأنّهُ يسكنُ بيتَ الحمد إن شاء الله.

تابعتْ كلامها بيقين، قائلة:

- لكنّنا لم نركن إلى قولِ البشر، فحاولنا بعدها أنا وزوجي أن نطلبَ العلاجَ كثيرًا، لكنّ الأمر لم يفلح، أخبرونا أنّ الأمر شبه مستحيل، لكنّني استمريتُ بالدعاء بيقين، كُنتُ أستمدُّ يقيني وصبري من اللهِ دائمًا، وكلّما قنطتُ وهزّتني ريحُ اليأس كُنتُ أثبّتُ قلبي بقصةِ امرأتيّ زكريا وإبراهيم عليهما السلام، اللتان أنجبتا في سن متأخرة وكانتا وقتها عاقرتين.

مسحتْ دمعةَ حمدٍ سقطت على خدّها، ثم أكملت:

- أربعة عشر عامًا وأنا أذهبُ بقنديلي الخافت إلى الله ليضيئه لي، فأعود كل يوم وأمل نور الإجابة يملأني، وفي ليلةٍ من رمضان منذ ستةِ أعوامٍ وأحسبها كانت ليلة القدر، كانت القلوب قد بلغت الحناجر، شاهدتُ حينها في المسجد في صلاة التراويح فتاة صغيرة كانت تبلغ ما يقارب الثلاث سنوات من عمرها، كانت تصلّي هي ووالدتها إلى جانبي، ضممتُها ولهفةُ التمني في قلبي وأخبرتها أن تدعو لي بقمرٍ صغيرٍ مثلها فرددت ما قلتُ لها، أحسبها كانت دعوة مستجابة "وكل دعاء الأطفال كذلك!"، بكيتُ طوال الليلِ وقتها، سألتها عن اسمها فقالت لي: "مريم"، وأصبحتُ على فجرِ مريمتي الصغيرة في أولِ أيام العيد، حينَ شعرتُ بأعراض الحمل ذهبتُ إلى الطبيبة لأتأكد من ذلك، فأكدت لي فرحتي التي لطالما حلمتُ بها، كان العيد عيدين!.

كنّا نصغي إليها وكأنّ هناك جرعةَ إيمانٍ ويقينٍ قد ملأت قلوبنا، حين أردفت:
- توفي أبوها قبل أن تأتي إلى الدنيا بشهرٍ واحد، وكنّا قد اتفقنا من قبل على اسم "مريم"، بعدما أخبرتهُ بقصة الصغيرة في المسجد، أوصاني بها قبل وفاته ودعا الله لها بأن يتقبلها بقبولٍ حسن.

تنهدتْ بارتياح ثم تابعت:

- كانتَ "مريم" دعوة أعوام تخللها يقينٌ بربِّ الأسباب بعد انقطاعها، وكانَ زوجي صابرًا عليَّ.. مخلصًا لي..، إلى أن أكرمني اللهُ بمريم، وأحمدُ الله دومًا أن تركَ لي قطعةً منه، فلا تيأسوا من دعوة تأخرت ولا تستعظموا حلمًا تطلبونه.

كانت الخالة "أم مريم" مدرسة في الإيمان، وهُم أولئكَ أصحابُ اليقين العالي باللهِ يا شام، لا يركنون ليأس ولا يستكينون لضيق، يحاربون حتى الرمقِ الأخير، أسلحتهم أقوى بكثير من أسلحة المعارك، رماحهم تحملُ سهام الليل، وسهام الليل لا تُخطئ، يدركون الأسباب ويعملون بها حتى إذا فرِغوا منها تضرعوا إلى ربِّ الأسباب راجينَ كشف الضرِّ عنهم، ولا تلبثُ بذور اليقين تِلك إلا أن تُنبتَ مع بزوغِ الفجر أزهار الإجابة، وكذلكِ أنتِ يا شام كُنتِ مناجاة اللهِ في عتمِ السحر.

تركنا الأم بجوارِ أميرتها الصغيرة وهي تنتظرها إلى أن تصحو، وخرجنا بعدها إلى قسم الاستراحة، طلبت بعدها كوبين من الشاي لنُذهبَ عنّا آثارَ التعب والنعاس التي اعترتنا، كُنتُ أراقبكِ وأنتِ تحتضنين كوب الشاي الساخن بيديكِ الصغيرتين، أغارُ دائمًا من الأشياءَ التي تحظى بدفئهما قبلي..

بادرتِ بالحديث وقد غشيتْ السكينة ملامحكِ:

- أتعلم يا حسام؟، دائمًا ما أشعر بأنّ اللهَ يُرسلُ لنا من يربت على قلوبنا ويُذكّرنا بقدراته، يرانا وقد نهشَ اليأس والقنوط من قوتِ أرواحنا، فيبعثُ لنا أملاً جديدًا على هيئةِ قصة نعيشها أو يحكيها أحدٌ لنا، تمامًا كقصة الخالة "أم مريم" اليوم.

طالعتُ عينيكِ المطمئنة والتي أصابت قلبي بحظٍ منها، كُنتُ أتمنى أن أحكي لكِ عن أنّتِكِ تلك القصة التي دائمًا ما كان يُرهقني تأخرها، فرددتُ عليكِ مؤيدًا كلامك:

- أجل يا شام، اللهُ لا يتركُ عباده تائهين أبدًا وحتى إن كان طريق صبرهم طويلاً، فإنّهُ حينها يمدّهم بقناديلِ لطفٍ خفيٍّ منه، يُنير لهم الطريق ويُرشدهم لكي يرتقوا إلى مراتب إيمانية أعلى وأجل، طريق الصبر كلّهُ خير، ولو كُشف لنا الثوابَ الذي فيه، لأحببنا أن نُمضي أعمارنا فيه.

أومأتِ بحياءٍ موافقة لرأيي، فسألتكِ:

- هل عندكِ أماني تُرسلينها كل يوم إلى السماء يا شام؟

فأجبتِ بعد ثوانٍ من التفكير:
- بالتأكيد لكل أحدٍ في هذا الكون أمنية، من طفولتهِ حتى مماته.
- وهل أبصرتِ نورَ إحداها؟

فأجبتِ بيقين:

- بالتأكيد كرمُ اللهِ لا ينقطع أبدًا وكما قلتَ أنتَ، وإن لم تأتِ الإجابة على الهيئة التي نتمناها كل يوم، لكنّهُ يستجيب دائمًا، يستجيب بسترهِ وعفوه، بسكينتهِ وطمأنينته، يستجيب بأنّهُ يعطينا نعمًا فوق حدود تخيلنا حتى ننسى الألم الذي نعشيه، والأهم أنّهُ يمدّنا بزادِ الصبر.

حاولت حينها أن أستجمعَ قواي، لأبوحَ لكِ بأنّكِ أمنيتي، حلمي الذي يسكن مخيلتي، بأنّكِ دعوتي التي تلزمُ سجدتي، وأنّكِ البسمة الوحيدة القادرة على أن تذهبَ بأثارَ الحزنِ المحفورة على وجهي، وددتُ أن أخبركِ الكثير عنكِ، وكُنتِ تعلمين من هذا الكثير أيضًا..

نظرتُ إلى عينيكِ بلهفة..

وقلت:
- وأنا لي أيضًا أمنية قد طالَ انتظارها!
أخذتِ رشفة من كوب الشاي، ثم قلتِ كلمة تخبئين وراءها الكثير:
- اصبر، لرُبّما أمنياتك تسعى إليكَ وأنت لا تدري!.

كنتُ سأجيبك بأنّ أمنيتي تجلس بجواري الآن، وأني أحتاج منها لكلمة موافقة فقط، لتدُسَّ طبيبتي حقنة من الفرح تسري بشراييني مدى الحياة، لكنَّ صوت الخالة "أم مريم" قد قاطعنا وهي تعلمنا باستيقاظ مريم.

ركضتِ إليها لتتعرفي على تِلك الطفلة وتأخذي معها صورة تذكارية كبقية الأطفال، يا لحظهم بكِ..

أثنيتِ ركبتيكِ وأخرجتِ قطعة من الحلوى من جيبكِ وأعطيتِها إيّاها، ثم همستِ لها:

- كيف حالكِ أيّتها الأميرة؟.

ابتسمت لكِ بلطف، ثم قالت بلهجتها الطفولية:

- الحمد لله بخير، تعرفين أنا لا أحب الأطباء لأنّهم يوجعونني بوخز الإبر، لكنّكِ تبدين لطيفة للغاية ..

ضحكنا لكلامها الذي يشبه كلام الكبار، فقلتُ لها كلمة أواري خلفها الكثير من الحب لكِ:

- حقًا، الجميع هنا يحبّها حتى أنا!..

فغرتِ فاهكِ ووضعتِ يدكِ عليهِ بدهشة، كدتِ تقولين أيّها المجنون، لولا أن سبقتكِ مريم بكلماتها وسألتني بفضول:
- تبدو أنّكَ تحبّها كثيرًا، أأنتَ خطيبها أم زوجها؟ ..
أجبتها بسرعة:
- ليس بعد!.
- لِمَ لا تطلب يدها إلى الزواج إذًا؟.
- كُنتُ سأفعل اليوم، إن وافقت الأميرة على ذلك.

أطرقتِ رأسكِ بحياء، والدهشة قد بدّلتكِ، كنتِ تتوقعين مني هذا لكن ليسَ بتلك الطريقة التي تشبهُ الروايات والمسلسلات، أبهرتكِ تلك الصغيرة صاحبة الخمس سنوات وهي تتحدث وكأنّها فتاة ناضجة، وأبهركِ أيضًا جوابي لها..

نظرتْ إليكِ "مريم" وقالت لكِ:

- لا ترفضي عرضه أيّتها الطبيبة، يبدو أنّهُ يحبّكِ كثيرًا ..

ضحكتِ لتارة وأدهشتكِ مرةً أخرى طريقة حديثها الغريبة، فقلتِ لها بضحك:

- وما أداركِ بتلك الأمور أيّتها الصغيرة؟

- هكذا أرى بالمسلسلات!

أخذتْ بيدي ووضعت فوقها يدها، ثم قالت لكِ:

- أعطني يدكِ

أخذتها ووضعتها فوق يدها التي تعلو يدي، ثم همست لي:

- باركَ اللهُ لكَ بها.

الختام:

كُنتُ أقصُّ عليكِ تلك الذكرى في عيدِ ميلاد مريم الأول، بعد أن أخذتُ يدها الصغيرة ووضعتها فوق يدي ثم همستُ لكِ:

- أعطِني يدكِ..

فضحكتِ بمرحٍ طفولي، ثم قلتِ:

- أتطلب يدي للزواج مرةً أخرى؟! ..

أومأتُ برأسي موافقًا، ثم أخذنا صورة تذكارية لأيدينا نحن الثلاثة.

تِلكَ هي الأمنيات التي نرسلها إلى السماء يا شام، تأتي أعظم بكثير ممّا حلمنا به، تُقرُّ بها أعيننا حتى نبكي فرحًا بمقدار ما أسرفنا من دموع في انتظارها، صدقيني لحظة واحدة وأنتِ بجانبي تكفي لأن تمحو مرّ سنين البعد.

لِمَ أنا؟!..

عُمتِ مساءً يا صديقة القلب..

هُنالكَ شخصٌ واحد دون مليارات الأشخاص الآخرين في هذا الكون يتوقف القلبُ عندهُ ليقول: هُنا وجدتُ سكينة روحي، فيبقى القلب معلقًا عند ذلك الشخص يأبى اختيار أيّةَ محطة أخرى.

ويبقى سؤال وحيد أنت غير قادر بلغاتِ الكون كلّها على أن تأتي بجوابٍ له؛ لماذا هو؟!، فتُردد في قرارة نفسك:

- هكذا شعورٌ غريب لم أشعر به من قبل، ولا أقدرُ على وصفه.

وذلك السؤال الصعب الذي يُشبه أسئلة الدكاترة الجامعيين توقعتُ أن أقع في امتحانهِ يومًا..

أذكر أنّكِ كُنتِ تستندين برأسكِ على كِلتا يديكِ بشكلٍ عفوي وأنتِ تجلسين على الطاولة أمامي، أتعلمين؟! ذكّرتني جلستنا وقتها بجلسة المحققين في أفلام الأكشن، المتهم يجلس على كرسي وإلى مقابلهِ المحقق على نفس الطاولة.. لكنّكِ أجمل محققة في التاريخ، يودُّ المرء لو أن يماطل في الأجوبة الدهر بأكمله، ويأبى أن يعترف بجريمة سرقة قلبكِ العمر كلّه لكيلا تغيب تلك اللؤلؤتان عن عينيه.

ترفعين بصركِ إلي بعد أن فرغتِ من قراءة الكتاب الذي أمامكِ، ثم تقولين :
- هل لي بسؤال ؟!..

عهدتكِ تكثرين الأسئلة والخوض في التفاصيل، هل تعلمين أني أشعر أنّ من يجلس إلى جواركِ عليه أن يقرأ كتب العالم بأكملها لكي يتمتع بفلسفة قوية في الحب يستطيع أن يجيب بها على أسئلتكِ، لكن هذه المرة على قدرِ ما كان السؤال بسيط على قدرِ ما كان صعبَ الجواب.

تنهدتِ وقتها، ثم قُلتِ:

- لِمَ أنا دون غيري؟!

عدّلتُ وضعية جلستي وأجبتُ بعدها بثقة:

- وكأنّكِ تقولين لِمَ اختار البحر الشاطئ ليحطَّ أمواجه عليه؟! أو لِمَ اختارَ النهار الشمس دون القمر ليكون إشراقه بها؟! تِلكَ أمور لا أحد يعرف أجوبتها حقًا..

- لن تشفع لك فلسفتكَ تِلك عن الإجابة!

- وماذا أيضًا حضرة المحقق شام؟

نظرتِ إلي وقتها نظرة استفهامٍ ممزوجة بابتسامة تعجب، ثم قُلتِ:
- تقرأ مئات الكتب وتكتب الكثير عن الحب وتعجز أن تجيب خطيبتك عن سؤال بسيط مثل هذا!.

- ما دام السؤال بسيط إلى هذي الدرجة فلنتبادل الأدوار ولأسألكِ أنا إذًا.. لِمَ قبلتِ بي دونَ غيري؟ وأعدكِ أن أجيب بعدها.

ظهرَ شيءٌ من الارتباك والحياء على وجهكِ حينها وأنتِ تقولين:

- اممم، بصراحة اخترتك لأنّكَ أعتقد... أعتقد... أعتقد لأنَّ..

- ألم تمَلي من تكرار كلمة أعتقد، لقد قلتِها للتو على مسمعي ثلاث مرات!
- حقًا لا أعرف، لا جواب عندي إلا أني اخترتك لأنّكَ أنت، قد تكون إجابة غبية أو غير مقنعة لكن لا كلمة أخرى تسعفني.

- إذًا يا حضرة الأستاذ شام، لا تختبري طلابكِ مرة أخرى بأسئلة لا تعرفين جوابها.

"إنّ اللهَ يقذف الحب في قلوبنا، فلا تسأل محبًّا لماذا أحببت؟!".

النجمة
اثنان وخمسون..

بعد غروب طويل لسعادتنا، وبعد أن نال مني يأس اللقاء، ضاقَ بي شوقي إليكِ، ارتديتُ معطفي الأسود الذي اشتريتِه لي في ذكرى خطوبتنا وخرجت، أمشي حيث التقينا أول مرة وككل مرة تنتابني ذكريات اللهفة الأولى للقاء، المكان ذاته بالشعور ذاته!، ما أحلى وأمرّ ذاك الشعور يا شام وكأنّ لهفةَ اللقاء تولد في كل مرة مع الأماكن!.

أمشي في مكاني المفضل "مكان ولادة حبّنا الذي لطالما أقسمنا أنّهُ لم يكن له مثيل إلا في قصص قيس وليلى، أتذكرُ إلى الآن النظرة الأولى التي صهرتْ قلبينا بنار الحب.. ضحكتكِ الأولى، سيمفونية صوتكِ العذبة، بريق عينيكِ اللؤلؤيّ، حضرتْ كل تلك التفاصيل ذاكرتي حينها وكأنّها تحدث للتو بالحلاوة ذاتها، شيءٌ واحد عكّرها فقط، وهو مرّ غيابكِ يا شام.

أجلس على المقعد الخشبي ذاته الذي لطالما حفظت أخشابه المهترئة تواريخ لقاءاتنا، وطُبعتْ بحبرِ الحب عليهِ أسماؤنا، والتواريخ أيضًا.. نعم لم أنسَ قدسية التواريخ لديكِ يا شام!، أتذكر كيف انتهى بي الأمر حينما نسيتُ الساعة والدقيقة التي أخبرتكِ فيها بحبي لكِ هنا، نعم كانت تعنيكِ التفاصيل كثيرًا، ولربّما كانت أحد أسباب بعدنا الطويل اليوم.

جلستُ أراقبُ لمعان نجومِ الليلة الصافية وبدأتُ بعدّها، كان يُبكيني غياب صوتكِ عن العد يا شام، أفكاركِ الطفولية تلك حول عدّ النجوم وحبوب الوجه تشغفُ قلبي دائمًا.

عندما وصلت للرقم خمسين، زاحمني صوتٌ لطيف ليس بالغريب على مسمعي:
- واحد وخمسون..
- شام.. أنتِ!
قلتُها لكِ وملامحي قد اكتست بحلّةِ الفرح حينها، أكملتُ العد بعدها:
- النجمة الاثنان والخمسون والصدفة الاثنان وخمسون لقدرِ حبّنا..
ضممتُ يديكِ الناعمتين بحنو، وهمستُ لكِ:
- لا تتركيني مرة أخرى، موحشةٌ هي دقائق بعدك.

وأنا أيضًا
بلا مبررات..

كنتُ أخاف دائمًا من هذا اليوم!

إلى أن أتى يا وعد..

كنتُ أسمع كثيرًا عن أنّ الحب بعد الزواج ينقص

وأنّ اللهفة تموت!

لم ولن يعني لي هذا الكلام كثيرًا..

ولطالما راهنت الكون بأسرهِ على حبّنا

فأنا أعرف أني بكِ أحارب الكون، وأنّ حبّي لكِ لم يكن كحبِّ المظاهر الفاني.

عندما أحببتكِ، أحببتُ تلك المضغة الصغيرة التي تسكن جوفكِ، أحببت قلبكِ العفوي كقلب الأطفال الذي لم تشبه شائبة من حقد هذا الكون، ولهذا أنا أسميكِ طفلتي الصغيرة.. طفلتي التي إلى اليوم ما زالت تسعدها قصة مني قبل النوم، ومقطع عابر لسبيستون.

لكن هي الخلافات قانون الكون الحتمي يا وعد..

ونحن لا نشعر بقيمة النعمة التي نملكها إلا إذا فقدناها، والله أراد أن يُبعدَ قلوبنا عن بعضها قليلاً لنتحسس قيمة حبّنا، وأنا اليوم بعد خصومتنا الأولى بعد الزواج..

أشعر بكِ.. أشعر بكِ أكثر من أي وقت مضى.

أكتشف للمرة الأولى ببعدكِ نارًا في صدري لا يُطفئ جذوتها إلّا أنتِ، خمسة عشرَ يومًا من الجفاء بيننا لسببٍ تافه "وأكبر سبب في الخلافات تافه يا وعد، فليس هنالك سببٌ أكبر من الحبّ بيننا".

أنتِ موجودة معي في نفس المنزل..

لكن ليس قلب وعد نفسه الذي معي، لربّما جسدها فقط، ف "صباح الخير" لم تعد تأتي منكِ فتحمل ليومي الخير..

وقهوتنا الصباحية التي تحببينها مع حبات الهال، لم تعد تأتي بنفس طعم ورائحة الحبّ من يديكِ "ولا أخفيكِ سرّاً فالكافيين الذي يعطيني حيوية الحياة هو فيكِ لا في القهوة"، وانتهاءً بإهمال نفسي بعد غياب "دير بالك على حالك حبيبي" منكِ..

كانت مجرد تفاصيل، لكني اليوم أكتشف أنّ حياتي هي تفاصيلكِ الصغيرة..

"أحبّكِ وعد..

أحبّكِ مني تعني كل ما تحويه الدنيا من كلمات الودّ، أعتذر، آسف، مُخطئٌ بحق جمالك، وممتن لوجودك

أحبّكِ تعني أن الحمد لله على أنّكِ في حياتي..

فهل لكِ أن تُزيحي همّ الدنيا عن قلبي؟!

ب "وأنا أيضًا" لا تحمل أي مبررات سوى أني أحبّكِ، فيبتسم العالم بضحكتكِ مرة أخرى".

وضعت لكِ تلك الرسالة بخط كبير مع وردٍ جوري أحمر في كل غرف المنزل قبل أن أغادر إلى عملي، وكتبت لكِ آخرها:
"هذا رقمي، علمتُ أنّ هناك فتاة جميلة ستتصل بي بعد ساعة من الآن، تُرى هل ستكون هذي الجميلة أنتِ؟"

حينَ رنّ هاتفي بنغمة الرنين خاصتكِ
"حتى نغمة الحب تلك التي نسيت أنّها غابت أيضًا عن سيمفونية حياتي، كانت تُضفي ليومي كُلَّ البهجة"

- وأنا أيضًا بلا مبررات، أحبّك.
قلتِها لي وقتها بصوتٍ عُزِفَ على موسيقا الحبّ..
رددت عليكِ حينها:
- ذلك اليوم الذي قلتِ لي عنه قبل الزواج، فقلتِ وقتها:

"إن أتى ذلك اليوم وتجافينا، فقل أحبّكِ ستغنيني عن كل كلمات الاعتذار والود".

الألماس في جوفها..

فرحتُ بضحكتكِ اليوم
شاهدت صورتكِ مع خطيبكِ الجديد..
وبالكادِ نسيتكِ..
فالحب ليس للحبيبِ الأولِ دائمًا كما يدّعون..
لكنّني حين أكتبكِ فهذا يعني أني أُفرغُ ما تبقى منكِ على الورق، ورقة لن أحتفظ بها حتى بعد أن أضع النقطة في نهاية السطر..
فقط لأني أخافُ على مشاعر وعد.

بمحضِ الصدفة ظهر لي منشور خطبتكِ اليوم،
وأنتِ تعلمين أنّها صدفة باعتبار أنّنا لم نعد أصدقاء..
لكنّهُ تعليق من أحد الأصدقاء..
ويا لبشاعة سياسة الفيس بوك تلك!
مجبورٌ أنا أن أكشف الضماد عن جرحٍ داوتهُ فتاة أخرى.

لفتَ نظري لمعة خاتم الألماس الذي يضمُّ إصبعكِ
فهذا كان أحد أحلامك.. أن تلبسي الألماس!
أمّا خاتم الفضة الذي ألبستهُ إصبعكِ في خطوبتنا ما كان ليليق بعائلتكم، هذا ما سمعتهُ منكم وقتها.

- "اليوم عوضني الله بِكَ عن سوءِ حظّي"
لفتتني كلمة سوء حظي وعرفت حينها أنّكِ تقصدينني!
فسوء حظّكِ كان فقري، وعوض الله لكِ اليوم هو خاتم ألماس يبرقُ في إصبعكِ، على أيّةِ حال فاللهُ يتولى ما في الصدور، وليس عندي متّسعٌ من الوقت لأخربَ فرحتي بعوض الله لي اليوم.

لقد عوضني الله حقًا يا شام!
لكن لو رأيتِ ظاهر الأمر لقلتِ ابتليت!
لن تسرّكِ ثياب وعد البسيطة يا شام..
سترينها بنظرتكِ السطحية إنسانة من الطبقة الفقيرة، لكني إن كتبتُ لكِ عن قلبها ستأكلكِ نار الغيرة بالتأكيد.

حينَما وضعتِ لي على الطاولة خاتم الفضة ورسائلي الورقية التي قُلتِ عنها وقتها:
- "كلام فارغ".
وقلتِ لي حينها أيضًا:
- أنّ الفقر لن يصنع أسرة، وأنّ الزواج ليس لنا "تقصدين نحن الفقراء".
رحلتِ وقتها وخنجرُ كِبرَكِ قد استلَّ قلبي.

عندما رجعتُ إلى البيت ارتميتُ في حضن أمي أبكي كالولد الصغير..
لم يُحزن قلب أمي أنتِ، بل أحزنها أنا.

عندما تقدمتُ لخطبتكِ أخبرتني أمي أنّ وضعَ عائلتنا لا يناسب وضعكم المادي والاجتماعي، وأنّكم من أصحاب الطبقة المترفة والمرموقة، لكنّني أصررتُ وقتها قائلاً لها:

- أمي أنا أرى الحب في عيون شام، وتلك السفاسف لا تعنيها.

هكذا نظرة الأم لأمور أولادها لا تخطئ يا شام

اكتفت أمي وقتها بقول:

- "يؤتكم خيرًا ممّا أخذ منكم" وهي تمسح على رأسي بحنية.

وعد صاحبة القلب النقي والثوب الساتر..
عندما رأيتها أول مرة أتت لي وهي تمشي على استحياء، ويبدو أنّها قد عرفت أني طبيب من السماعة التي تدلت من حقيبتي عندما انفتحت عن طريق الخطأ، صرخت لي حينها:
- دكتور نقودك!.
كان مبلغ زهيد جدًا قد سقط من حقيبتي عن طريق الخطأ، لكن هكذا هم أصحاب القلوب النقية يُدارون أبسط الأمور.
- الله يجزيكِ الخير
هكذا رددتُ عليها وقتها ونوبة من الحياء كانت قد غمرتها حينما أطرقت رأسها، وقالت لي:
- حضرتك طبيب!..
- نعم وإن احتجتِ إلى أي مساعد فأنا جاهز.
- أبي مريض قلب وهو متعب للغاية... يبدو أنّها أعراض السكتة القلبية ولم أجد أي طبيب مسعف، أرجوك إن استطعت مساعدتنا فأنا وأمي في المنزل بلا أي معين.
كانت تقولها بلهجة مرتجفة وفي عينيها البعض من الأمل أنّها قد وجدت ضالتها التي تبحث عنها، فلعلّي أنقذ أبيها أغلى ما عندها.

على مسافة بضع خطوات كان منزلها العتيق في الطابق الأرضي، طرقنا الباب ودخلنا، بدأتُ بعملية الإسعافات الأولية ثُمَّ انتظرنا بعض الوقت إلى أن تتحسن صحة أبيها قليلاً، في تلك اللحظة كانت تحتضن مصحفها الصغير وكأنّهُ رفيقها وهي ترتل الآيات على رأس أبيها. كانت دموع الحنية تنهمر على خدّيها.

توالت زياراتي لمنزل أهلها للاطمئنان على صحة أبيها، كُنتُ في كل مرة أقع بحبّها أكثر، كل ما فيها كان مُغرٍ للقلوب.. تقواها، لباسها، حتى مصحفها الذي عرفت بعد الزواج أنّهُ رفيقها الوحيد ومُنقذها في كل الظروف.

حتى أنتِ يا شام عندما حدثتها عنكِ منعتني من إتمام الحديث، قالت لي:
- الناس لربِّ الناس ولا أريدك بعد الآن أن تذكّر نفسك بأي شيء، ليس من أجلي لكن لأجل قلبك فلا أحد يستحق أن يحرقه فيحترق قلبي معه.

هكذا عوض الله يا شام..

شتان بين الألماس الذي في إصبعكِ اليوم

والألماس الذي في جوف وعد!.

قلة الاهتمام
خريف
للمشاعر..

عُمتِ مساءً يا صديقة القلب..

أشعر أنّ للجوِ علاقة وطيدة بالمشاعر، فالمطر يجمع العشاق تحتَ قطراته، والبرد كذلك الأمر، يجمعُ المحب بمعطف حبيبهِ، حضرتِ في روحي في هذه الليلة الباردة عندما تجمدت يدي وأنا أمسك القلم لأكتب.

اخترت من ذكرياتنا تلك الليلة الباردة التي شغلها الحديثُ عن دفءِ الحب، كُنّا نجلسُ على المقعد الذي نُقِشتْ على أخشابهِ العتيقة ذكرياتنا، كُنتِ تفركين كلتا يديكِ وتنفخين فيهما من شدة البرد، إلى أن حضرت الغيوم لتُدلي بسخائها فوقنا، أخبرتكِ وقتها أنّهُ علينا العودة للمنزل خوفًا من أن يصيبنا المرض.

- إلى هذه الدرجة كبرتَ وجار عليك الزمان؟

قلتِها وأنتِ تضحكين ضحكتكِ المليئة بالسخرية والحبّ..

- لا، بل من أجل ألا تعتريكِ الحمى كالمرةِ الماضية!

- تعرف بأني لن أفرط بمثل هذا الجو!

- ما تزالين مجنونة كما عرفتكِ!

قلتُها لكِ وبسمة الذكرى قد مرَّ حنينها على قلبي فأصابته بذكرى حبّنا.

- أجل مجنونة تعشقُ المطر!

- هل تعلمين أني كُنتُ أكره المطر قبل أن ألقاكِ؟، لكني اليوم أحبّهُ لأجلكِ.
- اممم أعرف، وصرتُ بعدها أمنيتكَ تحت المطر؟

- بلى، ومناجاة اللهِ في عتم السحر.

كان البرد قد سرى في جسدكِ وبدأتِ بالرجفان، خلعتُ معطفي بسرعة لأضعهُ على عاتقيكِ، فقلتِ بلهجة خوف:

- أخشى عليكَ من الصقيع!.
- وأنا أخشى على قلبي، فالأولى أن يدفأ قلبي قبل جسدي.
- العام الماضي اعترتكَ نزلة برد حادة!.
- لا بأس بالقليل من مدارتكِ الليلة، سيكون ذلك لذيذًا حقًا.
- مجنون حقًا!.
- رُبّما بكِ..

إلى الآن ذلكَ السؤال لا يزال عالقًا في ذاكرتي، يسري دفأه في قلبي كُلّما ابتعدتِ وبردت العلاقة بيننا..

- أتعتقدين بأنّ المشاعر كالأجساد تبرد أيضًا؟
- بلى.. فالمشاعر لها جوّها الخاص أيضًا!

ربيعها بالاهتمام والحبّ والتفاهم، أمّا قلّة الاهتمام والبعد و التجاهل كلّها ثلاجة للمشاعر، قلّة الاهتمام هو خريف حقيقي للمشاعر، وقد لا تتساقط أوراق الحب دفعة واحدة.. لكن بالتأكيد مع الوقت ستتعرى شجرة الحبّ لتغدو بلا أوراق.

أريدُ أن أرى
طفولتكِ
بها..

مرحبًا يا سريرة القلب..

أنا إذ أسميكِ سريرة قلبي فإني أعنيها، فأنتِ تلك الألماسة الصغيرة المخبأة في جوفي وهل يليقُ بوصفكِ إلا الألماس يا صغيرتي؟ "صغيرتي لأنّكِ طفلة جميلة مختبئة داخل تلك الأنثى العشرينية صاحبة العقل المتزن"، فالجميع يرى تلك الأنثى إلا أنا أراكِ مُدللتي صاحبة الضحكة البريئة والخدّين الممتلئين والعينين اللتين تبوحان بطيبتكِ.

ولرُبَّما تتساءلين أن لِمَ دائمًا وفي كل مرة أتجهُ بِمدادِ ريشتي إلى طفوليتكِ؟! الجواب هو أنتِ والطفولة يا نسيم..

فالطفولة هي تِلكَ المرحلة البريئة ما قبل أن يتلوث فيها القلب بأضغانِ وأحقادِ الدنيا، وأشعر دائمًا أنَّ قلبكِ الأبيض بقي ماكثًا في تلك المرحلة، وأبى إلا أن يبقى في عالم النقاء، أقصدُ عالمكِ يا نسيم.

أذكر يوم قُلتُ لكِ ذلك الكلام حينما كُنّا نجلسُ في حديقة منزلنا الصغيرة نتبادل أطراف الحديث، فرددتِ على كلامي حينها متسائلة:

- من الواضح أنّكَ تُحبّ الأطفال كثيرًا، أليسَ كذلك ؟
- بالتأكيد، وقلتُ لكِ آنفًا أني أُحبّكِ!

فغرتِ فاهكِ وضحكتِ بحياء لجوابي الغريب، ثم أضفتِ:

- تضحكني أجوبتكَ حقًا في كل مرة، أخبرني إذًا كم طفل ترغب بأن يكون لدينا إن شاء الله ذلك؟

- لرُبَّما واحد وعشرين وكنتُ أرغب بالمزيد لكن هذا الحد القانوني!

اعتدلت ملامحكِ وقتها باستغراب وأنتِ تعلمين أني أخفي لكِ نكتة رومنسية وراء تلك الجملة، ثم قُلتِ:

- واحد وعشرون، بالتأكيد أنّكَ حينَ استلمت دفتر عائلتنا اليوم لم تلاحظ أن عدد الأولاد ينتهي عند العشرين، أو أنّها إحدى حيلك كالعادة.

- لا ولكن لعلَّك نسيتِ أنّكِ طفلتي أيضًا وستبقين هكذا إلى الأبد، لكن لا بأس، ها أنا أذكركِ.

كُنتِ وقتها في الأشهر الأخيرة من الحمل بابنتنا الأولى..

وعلى قدر ما كانت حركتها داخل بطنكِ تؤلمك، على قدر ما كان هذا الألم ألم لذة بأنّكِ بدأتِ تشعرين بحركة طفلتكِ الملائكية داخل جوفكِ، وأنَّ مجيأها إلى عالمنا قد اقترب.

وضعتِ يدكِ على بطنكِ المكورة وقتها، ثم قلتِ لي:

- اممم.. وطفلتك المشاكسة في بطني أترغب بأن تشبهني أم تشبهك؟

ضحكتُ حينها وقلت لكِ:

- بالتأكيد أنّها قد ورثت المشاكسة من أمّها!

- أو لرُبّما أبيها!

- إذًا فمن شابه أباه فما ظلم!

اتكأتِ برأسكِ على يدكِ اليمنى وقتها، وقلتِ:
- إذًا تتمنى أن تشبهك؟

- بالتأكيد يا نسيم كل منّا يحلم بأن يشبهه ولده،
لكن الجواب هو أنتِ كالعادة، أنا أريد أن أرى فيها نسيم بكل تفاصيلها..
وهل تريدين أن تعرفي لماذا ؟

ابتسمتِ وقتها وأنتِ تعرفين أنّهُ جوابٌ فلسفي جديد، لكن حتى تلك الفلسفة القلبية كنتِ تحبينّها لأنّكِ تعلمين أنّها تنبع من القلب..

- امممم، وماذا هذه المرة؟

- قلت لكِ مرة أنّ كل ما فات من عمري دونكِ كان ضياع يا نسيم، وأنا أريد أن أعوض ما فاتني منكِ بطفلتنا، أريد أن أرى نسيم الطفلة إلى أن تكبر.

مشاعر
الكاتب..

عُمتِ مساءً يا صديقة القلب..

أن أكتب حرفًا عن الحب يعني أن أضعَ مشاعري اتجاهكِ في ذلك الحرف، فمهما كتبت من النصوص ومهما خطّت ريشتي من الروايات الرومنسية سأبقى أتحسسُ لمسةَ حبّكِ بكل حرف..

ولو أنّكِ تأخذيني بنقاشاتكِ منحى المزاح، إلا أنني أعرف أنّكِ في بعض الوقت تستغلين أحاديثنا الفكاهية تلك لداعي أن أبوحَ لكِ بكل أسراري، ولا أخفيكِ سرًا، أنا أيضًا من وقت أن عرفتكِ منذ عشر سنين إلى اليوم، وأنا متعطشٌ لأعرفَ المزيد عنكِ.

فالحب لا يعرفُ الاكتفاء، كالغواص الذي كان يخافُ الماء في طفولته، ثم ما يلبثُ إلا أن يتقن السباحة ويعشق البحر ليحبَّ الغوص في أعماقه بلا اكتفاء.

- هل تسمح لي بسؤال؟

قلتِها لي مع بسمة خجولة جعلت وجهكِ القمري يُنير عتمة التعب التي أظلمت يومي وأنا منهكٌ بالتفكير بأحداثٍ جديدة لأحد رواياتي..
- اممم ، كان لي أنسة في الابتدائية لا تسمحُ لأحدٍ بالسؤال حتى يرفع يده..

رفعتِ يدكِ وقد غشيكِ الضحك، ثم قلتِ:

- يقصُّ الكُتّاب كثيرًا من القصص الرومنسية، فيدمجون مشاعرهم بالنصوص وكأنّها مشاعر حقيقية في بعض الأحيان، فكيف يوفقون لذلك؟

- اممم، تسألين كقارئة أم لأنّكِ زوجتي؟
رددتِ وقتها باستغراب:

- وما الفرق؟

- إن كُنتِ تسألين كقارئة فالجوابُ أنّ الكتابة هِبة يمنحها اللهُ سبحانهُ وتعالى للعبد، والكاتب الجيد هو من فقه أغلب الناس قوله حتى صاروا يقرؤونها على هيئة مشاعر وهنا نقطة مهمة تدعونا لعدم اللجوء إلى اللغة الجزلة في الكتابة إن كنّا ننوي الفائدة للجميع.

رددتِ عليَ حينها بعفوية:

- أوه، أحببتُ ذلك جدًا وماذا عن نسيم؟

قلتِها وقتها وأنتِ تضعين رأسكِ على يدكِ اليسرى، وترسمين بسمتكِ المغرية على وجهكِ..

- امscroll، نسيم تلك فتاة يطولُ الحديثُ عنها، ولرُبّما أحتاجُ عمرًا آخر بعد لأستطيع أن أُلمَّ ببعضِ تفاصيلِ جمالها، تعلمين أني أكتب كثيرًا وليسَ كل ما أكتبهُ عن الحب يكون عنكِ، رِغمَ أنني أتلذذ بوصفكِ بين الفينةِ والأخرى، إلا أني لا أكتب حرفًا عن الحب إلا وشعورهُ ينبعثُ من حبي لكِ..
يا نسيم حينَ يحبُّ المرء لا يعودُ كما كان.. يمتزجُ الحبّ في كل تفاصيل حياته، حتى إذا دخل الحب في قلب الكاتب صارت مشاعرهُ تلك تظهر للقارئ بكل سهولة.

تورّدتْ حينها وجنتاكِ من الخجل فقلتِ بشيءٍ من الاستحياء بانَ على حُمرة خدّيكِ:
- ونسيم محظوظة بأن تزوجت من كاتب يكشفُ لها عن تفاصيلٍ عنها هي لم تدركها بعد.
- بل أنا محظوظٌ بنسيم إذ جعلت مني كاتبًا حقيقيًا.

الحب
أمان..

في جلستنا المعتادة، أتأملكِ كعادتي فأشرد قليلاً، ولا أخفيكِ سرًا فمن تأملَ عظمة إبداعِ الخالق سُحِرَ بروعتها..

تتهادى ألحان صوتكِ اللطيف على مسمعي، فتسألينني ككل مرة أحد أسئلتكِ الغريبة، وكأنّكِ تحاولين اكتشاف غرابتي المختبئة عن الجميع إلا أنتِ "وهنا تكمن عظمة الحب يا شام أن يرى المحب في حبيبه ما لا يراه الآخرون".

- كريم!

وكأنّ سماع اسمي بلحنِ صوتك قد أطربَ تركيزي وقتها، أكملتِ:

- هل لي أن أسألك عن شيء يخصك؟!

أجبتكِ بمجمعٍ ما بين البسمةِ والحب:

- على الرحب شام، ولولا أني قد أخبرتكِ سابقًا أنّه لا خصوصية بين قلبينا..

تكملين سؤالكِ:

- لماذا أراكَ ضعيفًا معي على عكس قوتك أمام الجميع؟!

اعتدلتْ ملامحُ وجهي بشيءٍ من الاستغراب حينها، فدائمًا ما يخطرُ لبالي ذلك السؤال، أن لماذا نحن ضعفاءٌ أمام من نحب؟، أجبتكِ بعدَ ثوانٍ من الشرود:

- لعلّه الحب!

- الحب!

- أجل الحب يا شام، فإني أرى أنّ الحب يضع كل نقاط ضعفنا أمام من نحبه..
سألتِ بعدها مستغربة من الإجابة:

- كيف، أوَليسَ من المفترض أن نكون أقوى به؟!

- بلى يا شام نحن نتقوى بالحب أمام الناس ولكنّنا نستمد القوة من ضعفنا أمام المحبوب..

فلعلّ الحب أمان!

كأن تجد من تبوح له بضعفك أمامه دون أي حرج، أن تبكي أمامه وتخبره بحبك دون أن ترى منه أي شفقة، أن يُعطيكَ الحنان دون أي مقابل ولو كنت أكثر الناس قوة..

ولله المثل الأعلى والحب الأسمى..

تبكي أمامه كل البشر دون أي حرج، فالحب أمان.

- امم جميل جدًا، ولكن ألا يجب أن يخاف الشخص من ضعفِ محبوبه أمامه؟.
- على العكس يا شام فكلّما أحبَّ المرء أكثر كان مطمئنًا أكثر بوجود حبيبه..
رددتِ علي وضحكةٌ حلوة قد اكتست وجهكِ القمري:

- كم أنت مطمئن معي إذًا؟

أحطتُ يديكِ بيديّ وهمستُ لكِ وقتها بضحك:

- إلى ما لا نهاية له.

دفتر
مذكراتـي..

بينما أقلّبُ دفتر مذكراتي الذي عهدت ألّا أفتحهُ منذ فترة، بالتأكيد ليس لأني لم أعد أشتاقكِ أو أنّ قلبي نأى عن حبّكِ على العكس تمامًا، لكنّها لربّما المحاولة الألف لكي أحفظَ ما تبقى من فتات قلبي المنفطر على بعدك، أمسح الغبار عن الدفتر، فأشعر بأنّ ذرات الغبار تلك تنزاح عن قلبي، كان الدفتر يبدأ باسمكِ فعزَّ على أن يعلو الغبار قلبي..

وعادتي عند الفشل في محاولات النسيان تلك، أن أفتح رسالتي الأولى لكِ، ما زالت محفوظة مع الوردة الحمراء التي تحبينها، وعلى الرغم من أنّي لم ألتقِ بكِ لكنّي فكرتُ وقتها بأنّ جميع الورود تألفُ بعضها، وأنتِ وردتي "كان أحد الاسماء التي سميتكِ إيّاها في مذكرتي".

أقرؤها بتمعن، وعلى الرغم من بضع ماء عينيَ المنسكب على الرسالة إلا أنّ هناك حبرٌ وحيد لم يستطع الماء محوه، كانت كلمة تعلق بها قلبي إلى اليوم: "إنّها الصدفة الأولى يا عزيزتي، لكن قلبي ناجى خالقه بكِ" كانت هناكَ بضع الكلمات التي أخبرتكِ فيها عن خوفي من الوقوع في الحب، على مسافة قصيرة من بعض الصفحات تتأكد مخاوف الحب المشوّبة بالطمأنينة.

أتابع التقليب، تلفتني عبارة في الرسالة التي كان من المفترض أن أرسلها لكِ في عيد ميلادك لأجد في آخرها تلك العبارة:

"عزيزة القلب، كم تمنيتُ لو أن أشارك فرحة الكوكب بقدومك، لقد كتبوا لكِ الكثير من الكلمات.. لكن كلماتي لكِ التي لطالما أبهرت الجميع، هي بضع كلمات عاجزة عن البوح وحبيسة بين دفتي ذاك الدفتر كقلبي، لكن أملي بالله لن ينقطع ستأتي تلك اللحظة التي أسلّمكِ فيها قلبي وكلّي وما كتبتهُ لكِ بلا تردد، في لقاء الحلال والحمد لله مرة أخرى في حظّ لقائك".

مع انتهاء التقليب كانت لا تخلو أيّ رسالة كما صلاتي وكل دعائي من تمنيك ممّن يملك قلبك، من الله..

والله كريم، كُنتُ أرفقها بهم جميعًا وأقول قد جُبر من أكرمه الله بمثلكِ.

الحب هو أن ترى محبوبك في كل شيء..

"الحب هو أن ترى محبوبك في كل شيء".

لا أعرف إن كان هذا الاقتباس لشاعرٍ أو كاتب مشهور، أو أنّي أنا من كتبتهُ اليوم لكِ، وأيّاً كان من كتبه، فأنتِ من صدّقتِ لي صحة تلك العبارة، حقًا يا صديقة القلب بِتُّ أراكِ في كُلِّ شيء.

يضيقُ بي هذا البعد القاسي عنكِ، ولأنّي كُنتُ أرى أنّ بعضًا من المشي سيُخفف عني ما أنا فيه، خرجتُ هائمًا على وجهي أسيرُ في تلك الليلة الممطرة متُناسيًا مظلتي، فدائمًا ما أشعر أنّ قطرات المطر تلك تُطفئ شيئًا من حرقة قلبي، وعادتي أنّ أول ما أذكره بالمطر هو الدعاء، فأجدُ اسمكِ أول ما جُمعَ في حروف دعائي حينها، بدأت أتمتمُ بالدعوات، رجوتُ الله أن يغيث حرقة قلبي بغيثِ حبّكِ حينها.

على الرصيفِ المقابل تصطدمُ عيناي بمشهدٍ يُريقُ دموع التمني على قلبي المتعب، هناك على الرصيف المقابل زوجان لرُبّما شابَ شعرهما وتجعدت ملامحهم، لكن هذا الحب عندما يكسو القلوب، تكون التجاعيد والشيب للجسد فقط.. وكذلك هما، كانا مسنين بالجسد فقط، لكن قلوبهم بعمر الشباب، كانا يجلسان على مقعدٍ لعلّهم كانا قد التقيا عليه أول مرة، وكالعشاق الصغار يستندان إلى كتفي بعضهما البعض، وكأنّ كلاهما يروي للآخر حكاية:

- "خذ كتفي يحمل عنك هموم الدنيا".

كم تمنيتُ أن نكون في ذات المكان يومًا، نكبر ونشيب معًا، وأعطيكِ كتفي لتسندي عليه هموم الدنيا، وأخبركِ أنّي كنت وما زلت أراك كُلَّ شيء في كُلِّ شيء.

لو

الفراق..

لا أعلم السبب ولكن كتابتي لكِ تغرق بدموع البعد يومًا بعد الآخر، حتى أني صرتُ أميز تاريخ رسائلي لكِ من ألمِ الحروف فيها، وهذا ما يزيد قلقي يا شام، هل سيكون هناك ألم أكثر من هذا بعد؟! حقًا لا أعرف!

أستعيدُ بذاكرتي اللقاء الأخير لنا أو دعيني أبعد عن كاهل خيبتي كلمة "الأخير"، لأتمنى لقاءً يجمعني بكِ بلا سبب، فكلمة أخير تلك تُدمي قلبي..

- كريم! ماذا لو كان هذا آخر لقاء بيننا؟!..

سألتِني بلهجة تملؤها القلق، أزَّ سؤالك طمأنينة قلبي أزّاً وقتها، وكأنّه سيفٌ قد استلَ سعادتي..

أجبتكِ بشيءٍ من الانزعاج:

- شام ألا تكفين عن نزع روحي بأسئلتكِ الغريبة تلك؟!

لرُبَّما كانَ مجرد حديثٍ عابر حينها، إلا أنّنا قرأنا في أعين بعضنا ألم الفراق، وأذكر أنّكِ حاولتِ التخفيف من حدة الموقف، حينما قلتِ لي:

- آسفة كريم، لم أعنِ تعكير مزاجك ولكن هو أحد الأسئلة التي خطرت على بالي.

وهنا اشتعلَ الخوف في قلبي أكثر يا شام، فدائمًا ما كان يصدقكِ إحساسك بالأمور، وفي حبّنا كاد إحساسكِ ألا يخيب مرة.

نظرتُ إليكِ حينها مخاطبًا إيّاكِ بقليلٍ من الارتباك، وقلت:

- لو كان بإمكاننا النظر إلى من نحب بعين الفقد لانتهت كل مشاكل الكون!، كل مصائبِ الدنيا هيّنة دون الفراق! يصعب علينا حتى أن نتكلم في أمرٍ كهذا، ف "لو" الفراق ليست كغيرها يا شام..

"لو" الفراق تسلب الأفراح وتُذهبُ العقول.

وها "لو" فراقكِ قد صدقتكِ اليوم يا شام! ..
أما عني فهل تصدقني "لو" نلتقي يومًا كما فرقتنا "لو" فراقك؟..
الحياة فرصة بفرصة أليس كذلك؟!
فرصة لي وفرصة لكِ .

مودة و"رحمة"..

(القصة الأخيرة)

(1)

هناكَ دومًا لحظات لا يعود المرءُ بعدها كما كان، فهي بالاصطلاح الزمني مجرد لحظات، لكنّها في حياة من يعيشها حقبة زمنية تجبي ما قبلها، وتُحول ما حسبتهُ مستحيلاً إلى ممكن في لمحِ البصر وطرف العين.

وكذلك "رحمة" كانت تلك اللحظة الحاسمة في حياته، فالأميال التي انحرفت بها عيناه عن طريق الخطأ لتلتقط صورة حسنها لم تكن بضع مليمترات فقط، بل كانت كيلومترات طويلة قد عبرت طرق قلبه، والأجزاء من الثانية التي تلاقت خلالها أعينهم كانت بمفهوم زمن الحبّ حياة جديدة وعمرًا بأكمله.

كانَ "أحمد" طالبًا في كلية الطب في جامعة حلب، ورغمَ حبّه للدراسات الطبيّة إلّا أنّ هناكَ شغف آخر كانَ يملأُ قلبه، كانت الكتابة هي مهنةُ قلبهِ التي عرفها قبل التشريح والفيزيولوجيا..

وإلى الآن يذكر توبيخ أنسته في الابتدائية عندما كتبَ موضوعًا تعبيريًا أشبه بأن يُرشح لجوائز النصوص الروائية فحسبتْ لوهلة أنّهُ يغش، لكن هذا التوبيخ كان نقطة تحول ودافع كبير له في عالمِ الكتابة، فغالبًا لا ينتقدك الناس إلّا عندما تغلبهم وتكسر حواجز توقعاتهم، وأكبر طاقة خفية يُقدمها الإنسان هي عندما يُنتقد، وقد كانَ قلمهُ صديقهُ الدائم الذي بإمكانهِ أن يُمسكَ به ليفيض بمشاعره على الورق متى شاء، وإن كانَ مهمومًا فسيواسيهِ حتمًا.

وكأيّ كاتب كانَ للنصوص الغزلية حظٌّ من كتاباته، كانَ "أحمد" يعشق الفلسفة في الحب، فكلّما خطرت لهُ فكرة، كوّنَ بطلتهُ على الورق وحكى لها ما يختلجُ بهِ صدره، ومن ثم جعلها تردّ عليهِ بما يحبّ، وكانَ يشعر بأنّ تلكَ البطلة ستخرجُ من بين نصوصه يومًا ما..

إلى أن أتى ذلكَ اليوم، ففي أحد صباحات أيّامهِ الجامعية، لم يكن هذا الصباح كغيره، كانت شمس قلبهِ على موعدٍ مع شروق الحبّ، ذلكَ الشروق الذي أضاءَ عتمة شوقهِ الطويلة، ففي هذا اليوم وعى تمامًا ماذا قصدَ جلال الدين الرومي حينَ قال:

"إنّ الإيمان والحبّ يجعلان البشر أبطالاً، لأنّهما يزيلان الخوف والقلق من قلوبهم"

وهو كانَ كأيّ رجل بحاجةٍ إلى بطلة تُكمل نصفه الناقص.

كانت أميرتهُ "رحمة" كما يصفها ليستْ كسائر الفتيات، وهل يرى المحبّ حبيبه كسائرِ البشر؟! مُحالٌ هذا.. كانَ اللقاءُ الأول لهم في حافلة النقل الداخلي عندما تبعثرت الكتب التي تحملها من بين يديها قبل أن تصل إلى المقعد لتجلس إلى جواره، سرقَ صوتُ الكتب المتساقطة شرودهُ المعتاد ليلتفتَ إلى جهة الصوت فتلتقي عيناه بعيني بطلته، ذلكَ الوقت الذي يُسمى "ثانية" بمفهوم الزمن كانَ عمرًا كاملاً بمفهوم قلبه حينها، وكانت "رحمة" والتي أوتيت نصيبًا من اسمها، رحمة كبيرة قد أغاثَ اللهُ بها قلبه.. لقد كانتَ ترجمة حقيقية لما كتبه طوال حياته.

لملمت "رحمة" الأوراق والكتب المتساقطة على أرض الحافلة وأسرعت بالجلوس إلى المقعد الذي بجواره، "وما أجملَ تلكَ الأماكن التي تجمع قلوب المحبين، نبقى ممتنين لها طول العمر"..

تنهدت في ضيق كالطفلة الصغيرة وهي تهمس بصوتٍ شبه مسموع:
- يا إلهي!.. الثامنة إلا ربع سأتأخر مرة أخرى على المحاضرة!

انتبه إلى صوتها الموسيقي الذي عزفَ على ألحانِ قلبه وأطربه، فاختلسَ نظرة إلى الكتب التي تضعها فوق ركبتيها، كانت رواية "ليطمئن قلبي" للكاتب أدهم شرقاوي تستقر في الطبقة العلوية وتحتها محاضرات تحمل أعلى عنوانها اسم:

"جامعة حلب كلية الصيدلة"

أعجبهُ أنّها قارئة، فهمسَ بصوتٍ خفي:

- تبدو صاحبة ذوق رفيع في القراءة!

توقفت الحافلة مكانَ وجهته مقابل كلية الطب، كانَ يتوجب عليه النزول بسرعة ليهربَ من ازدحامِ باصات النقل الداخلي كعادته، لكن هذه المرة كانَ النزولُ يحملُ طابعًا مختلفًا، كانَ شعور غريب قد تسلل إلى قلبه حينها وهو يترك خلف ظهره تلك الفتاة، والتي ربّما لن يلتقي بها مرة أخرى.. لكنّهُ شعور عابر بالتأكيد..

"هكذا همسَ لنفسه حينها".

في قاعةِ المطالعة وبينما كانَ يراجع بعض معلوماته بدا "أحمد" شارد الذهن، هناكَ جزءٌ ما قد علقَ في قلبهِ هذا الصباح، ليستْ أول فتاة جميلة قد صادفها في حياته، من الطبيعي أن يرى في حياتهِ ألاف الفتيات، لكن لِمَ كانَ الشعور مختلفًا في هذه المرة بالتحديد؟!، كانَ يهمسُ لنفسه مبررًا مرة أخرى:

- لعلّهُ شعور عابر.. شعور عابر بالتأكيد.

لملمَ كتبه وتفقد حاجياته ومن ثم ثبتَ حمالة حقيبته على كتفه الأيمن وانطلقَ بطريقه إلى المنزل، كانَ يومًا متعبًا، ضغط الدراسة الذي لا ينتهي، والمحاضرات الطويلة، ووسائل النقل التي تشكل دوامًا آخر إلى جانب دوامه في الكلية.. انتظار الحافلة والازدحام أمر متعب..

تنهدَ في ضيق، لكنّهُ لا يدري كيف بددت ذكرى رؤيتها ضيقه، وقد سُرَّ لهذا الخاطر وهو لا يدري حتى لماذا حدث هذا الهدوء بداخله.

خرجَ إلى ركن انطلاق الحافلات، وبعد عملية بسيطة أجراها بخلايا مخه الصغيرة، قدّرَ أنّ عددَ الناسِ الذين ينتظرون الحافلة يفوق عدد مقاعد حافلات مدينة حلب مجتمعة!، لا بأس ببعض المشي كمعظم الأيام!، على الأقل سيخفف من خطر إصابتهِ بالتصلب العصيدي عن طريق خفض الكوليسترول، وسيخفض من نسبة الشحوم في دمه، ويحافظ على رشاقته..

- أوه.. يبدو هذا مثيرًا.

همسَ في نفسهِ بسخرية.

كانَ يحُضر نفسهُ دائمًا لرحلة العودة الطويلة مشيًا على الأقدام، أخرج من حقيبتهِ سماعات أذنيه وبدأَ يستمع إلى آيات القرآن، كانَ يشعر دائمًا بأنّ صوتَ القرآن يتسلل إلى قلبه قبل أذنيه، باغتهُ رنين هاتفه الذي قاطعهُ عن حصة التدبر اليومية، ليظهرَ على شاشة الهاتف اسم "ماما"، كانَ ذلك الاسم على هاتفه مصدر طمأنينته، ردَّ على الفور:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. أهلاً أمي.

طلبت منهُ دواءً مسكنًا لألم ظهرها، وأغلقت الهاتف وهي تدعو له بدعواتها الدائمة، "وكم كانَ يطمئن بسماع صوتها ودعائها":

- رزقك اللهُ زوجة صالحة يا بُني.

قالتها آخر الدعاء قبل أن تُغلق الخط.. زوجة صالحة! ولقاء "رحمة"!، لعلّها دعوة أمهِ المستجابة.

(2)

أقدارنا مرتبة بطريقة مدهشة، وكذلك الأشخاص فيها، يبعث اللهُ لنا الأشخاص ليُعلمنا دروس جديدة، لا شيء يحدث في هذه الحياة عن عبث..

لا إشارة تأتي صدفة

ولا لقاء يأتي صدفة

ولا حتى نظرة تأتي بمحض الصدفة، ولا حركة تأتي صدفة..

كل شيء مكتوب..

كتبه الله علينا في كتاب حياتنا قبل أن يخلق الكون بخمسين ألف سنة

فماذا عن شخص؟ هل يأتي صدفة؟! مُحالٌ هذا..

فكيف لنا أن نصدق الصدف؟! أليس الأولى لنا أن نصدق القدر؟!

وكذلكَ هي لم تكن صدفته أبدًا، بل كانت قدره، ضلعهُ الناقص الذي أُذِنَ لهُ بأن يعودَ إلى جوار قلبه حتى يطمئن..

أليست هي قد خُلقت من ضلعٍ أعوج قُربَ قلبه؟!

وهذا الضلع الرقيق كان يحمي قلبه، ومن دونه سيُخدش وينزف بالتأكيد.

دلفَ إلى الصيدلية المجاورة لمكان سكنهم، كانت فتاة عشرينية ترتدي مريولاً أبيضًا تجلس خلف الطاولة وتُطالع روايتهُ المفضلة بين يديها، كانت رواية "ليطمئن قلبي" للكاتب أدهم شرقاوي، همسَ بصوتٍ خفي تتخللهُ ضحكة خفية: ما بال تلك الرواية اليوم؟

- مساء الخير، ممكن دواء "دي-بين" من فضلك؟

صاح لها لينبهها إلى وجوده فأزاحت الكتاب الذي تحمله بين يديها وقدمت إليه على الفور، كانَ شيءٌ ما قد اهتزَ بداخله حينها وزعزعَ كيانه بأكمله، الفتاة التي جلست إلى جواره في الصباح تعمل بالصيدلية المجاورة إلى منزلهم!..

تناولت الدواء من الرف العلوي، ورسمت ثلاثة خطوط تشير إلى عدد المرات التي يتوجب على أمّه تناوله بها، لم تشعر أنّهُ غريب أبدًا، لعلّها رأتهُ في مكان ما، أخبرته بسعره بابتسامة:

- ثلاثة ألاف.

شكرها وناولها النقود وهمَّ بالمغادرة، وقبل أن يصل إلى عتبة باب الصيدلية تسللت إلى مسامعه صوت صديقتها:

- كيفَ حالكِ "رحمة"؟

أدركَ حينها أنّ اسمها رحمة، لكنّهُ لم يكن متأكدٌ بعد إن كان هذا اسمها فقط، أم أنّها فعلاً رحمة للقلوب.

عادَ أدراجهُ إلى المنزل وشعورٌ غريب قد حرّكهُ ليكتب، أمسكَ قلمهُ وفاض بمشاعره على الورق، أخذَ يترجم إحساسهُ إلى لغتهُ الأم "الكتابة"، وهو يكتب:

"إنّهُ الخوف يا عزيزتي..
هل سمعتِ من قبل عن متلازمة الخوف من الوقوع في الحب؟، ها أنا اليوم أكتب عنها، ولا أقرأها في المراجع بل أعيشها..
أخاف من الوقوع بالحبّ، فالأقدار بيننا بعيدة
لكن يُقال أنّ الحبّ لا يعرف مكانًا ولا زمانًا
تمامًا كما حدث معنا..
فالحب ليس من أول نظرة بل من أول لهفة".

تركَ القلم وتساءل في نفسه مجددًا:
- ما هذا الشعور!.

في الأيام التي تلتها كانَ شيءٌ ما يجذبهُ إلى المرور بشارع الصيدلية التي تعمل بها، حتى أنّ حاجتهُ للأدوية كانت قد تزايدت وهو لا يدري لماذا، أو لعلّهُ يخفي تلك الحقيقة عن نفسه..

ألقى نظرة إلى محاضرتها المفتوحة على الطاولة بعد أن دفع ثمنَ الدواء، وخاطبها بلطف:

- حضرتكِ تدرسين في كلية الصيدلة؟

فأجابته بهدوء:

- نعم الحمد لله، أساعد والدي في الصيدلية وأتدرب لمهنتنا المستقبلية.
ابتسم بودّ، ثم قال:

- وفقكِ الله، يبدو أنّنا في مجالين متصلين طبيًا.

أردفَ محاولاً تعريفها بنفسه:

- أنا أحمد، أدرس في كلية الطب في السنة السادسة.

ابتسمت على استحياء، ثم قالت:
- وأنا رحمة في السنة الخامسة.

أنهى الحديث بارتباك قبل أن يفنى ما تبقى من أعصابه الهشة أمامها:
- تشرفت بمعرفتكِ، أتمنى أن يجمعنا مجالنا الطبّي يومًا.

غادرَ الصيدلية وهو يهمسُ بقلبه أن يجمعهما مكان آخر.. بيتٌ صغير وسجادة صلاة.

ثم تدافعت الأفكار برأسه مرة أخرى:

- ما هذا الشعور.

شعور عابر! قد يكون ذلك حقًا، لكنّهُ بالتأكيد شعورٌ غريب، هي لا تفارق خلايا مخه، وإن صحَ التعبير فثنايا قلبه، لم يكن يعرف عنها إلا أنّها طالبة في كلية الصيدلة، كانت جملة "مجرد شعور عابر" تثير قلقه وبهجته في آنٍ واحد.

كانت الأيام تجري ببطء في غيابها، خفت وتيرة زيارته لصيدلية والدها، كانَ يعلل ذلك بأنّهُ لا يريد أن يتعلق بها، لكن الحقيقة كانتْ بأنّها قد توقفت عن العمل لتحضّر لامتحاناتها في الكلية، وماذا يعني المكان بغياب النّاس الذين يجعلون له قيمة؟!

كانتْ الساعة قد تجاوزت الثانية ليلاً والقلق قد نهشَ قلبه، لقد مضى شهر كامل دون أن يراها، تساءل في نفسه:

- لِمَ غيابها ثقيل إلى هذه الدرجة؟، ومن هي بالنسبة له؟!

أمسكَ هاتفهُ وكونَ نصّاً حكى فيهِ عمّا يختلجُ في صدره:

" بلى!

لن يتوقف العالم عن الدوران ببعدك

ولن تتصدّأ عقارب الساعات من بعد فراقك..

حتى قلبي سيُكمل دقاتهِ السبعين ذاتها!

ولكن لو تعلمين مرارة الأمر..

بأنَّ السبعين دقة في الدقيقة،

تعني أربعة ألاف ومئتي نبضة وجع في الساعة..

وستمضي الحياة..

سأكبر وأشيب،

ويشيب قلبي قُبيل شعري على فراقك..

وفرقٌ كبير سيكون بين أن أعيش أو أن أتعايش".

أغلق هاتفه وهمسَ بها بدعوة قبل أن يغطَّ في نومٍ عميق.

كانَ هذا الأمر يتكرر كل ليلة، كانت رسالتهُ الأخيرة التي كتبها في آخر يومٍ من غيابها عن قلبه:

"كعادتي، رُبّما تكون هذه المرة الخمسين التي أمسك بها هاتفي وأكتب لكِ فيها.. أكتب وأكتب، فيُراقُ دمعي ويفيض قلبي ثم ترتجف يدَيّ ويسقط قلبي مكبوتاً، وكأنَّ ذلك الخوف الذي يمنعني أصبح يحكم قلبي.

غيرَ أني جئتُ اليوم لمُذكرتي فقارنتُ رسائلي التي كتبتها لكِ على مرِّ سقوط قلبي بحكم عينيكِ فبحثتُ عن أول رسالة، فأخذت أُقلِب رسائلي حتى لقيتها، فوجدتها كلمة واحدة تقل وتدل على حبّي لكِ، كانت تلك الكلمة "أُحبّكِ"..

ثم أخذت أُقلِبُ وأُقلب حتى وجدت أنَ هذا الحب الذي بدأ بكلمةٍ لم تُرسل، زاد وزاد، وكان يحلو إلى وقتٍ اعترى فيه قلبي اليأس، ولو تعلمين أنَّه ولسوءِ الحظ ستكون هذه الرسالة الواحدة والخمسين من بين رسائلي الخمسين التي لم تصلكِ".

(4)

أشرقت شمس الصباح، لكنَ هذا الإشراق كانَ مختلفًا فأيامهُ المُعتمة دونها ما كانَ باستطاعة شمس الأرض ولا قمرها أن تضيئها، لكنَ قمرهُ "رحمة" كانت تفعل، كانَ عطشهُ للقراءة قد بانَ على قلمهِ الذي جفَ عن الكتابة، لذا قررَ الذهاب إلى المكتبة لإحضار بعض الكتب والروايات، توجه إلى مكتبة العم "أبو ياسر" المجاورة إلى منزله.

كانَ أبو ياسر رجلاً ستيني عاشر الكتب طوال حياته، كانَ مستشارهُ الأول في انتقاء الكتب، لكن يبدو أنّ الأمر اليوم سيتغير، دخل إلى المكتبة وألقى التحية على العم "أبو ياسر"، كان في المكتبة وقتها فتاة عشرينية يبدو عليها الحيرة في انتقاءِ الكتاب المناسب "وهذه أصعب مشكلة تواجه القراء في حياتهم، أن تدخل المكتبة لتلقى مئات الكتب الفاتنة المصفوفة على الرفوف، فتودُّ لو أنكَ تحتضنها جميعها".

بنظرة سريعة أدرك تلك الفتاة، كانت تبدو مألوفة له، استدارت للطرف المقابل، فانكشفَ لهُ وجهها، كانت رحمة حقًا!

- مرحبًا.

قالها بلهجة ودودة فيها الكثير من الاشتياق.

فردت على استحياء:

- أهلاً أحمد.

يبدو أنّ أذنهُ لم تستوعبْ هذا الكم الهائل من الموسيقى عندما لفظت اسمهُ على لسانها، إنّها تتذكر اسمه ولفظتهُ للتو، هذا شيءٌ مذهل "همسَ لنفسه"، ثم تابع الحديث:

- لقد مررتُ على الصيدلية طوال الشهر الماضي كلّما احتجتُ لدواءٍ ما ولم أكن أجدك في أيّ فترة، فعساهُ خيرًا.

لم يستطع أن يمنع نفسه من تفحص بنصرها كما فعلَ أولَ مرة، كانَ قلبهُ يرتجفُ لهذا الخاطر دائمًا، وكانت رؤيته فارغًا بلا محبس تروقُ له، فعسى أن يكونَ صاحب الحظّ الذي سيحظى محبسهُ بنعومة يديها.

أجابتهُ "رحمة" مع ابتسامة خجولة أضاءت يومه:

- الحمد لله أنا بخير تغيبت لفترة الامتحانات فقط، شكرًا لسؤالك.

التفتتْ لتُكمل انتقاء الكتاب الملائم، فباغتها بالسؤال:

- إن أردتِ المساعدة في انتقاء الكتاب فأنا جاهز.

تدخلَ العم "أبو ياسر" مداخلة لطيفة وهو يثني على موهبة أحمد:

- الدكتور "أحمد" كاتب بارع وقارئٌ مرّ منذ الصغر.

ابتسمَ أحمد لكلمته وشكره، فعلّقتْ "رحمة" بلطف:

- جميل للغاية وفقك الله.

- شكرًا لكِ.

استدارت "رحمة" وأخرجتْ كتاب "على منهاج النبوة" للكاتب أدهم شرقاوي، ثم قالت:

- شكرًا، لكن فكرت في هذا الكتاب مسبقًا.

- اختيار موفق، يبدو أنّ د. أدهم كاتبكِ المفضل، لقد رأيتكِ تقرأين روايتهُ أول مرة رأيتك بها في الباص، بالمناسبة هو كاتبي المفضل أيضًا.

انزلقتْ منهُ الكلمات على غير انتباه، فأدهشتها ملاحظته، فأومأت موافقة:
- نعم، هو أحد الكتّاب المفضلين لدي.

دفعت ثمن الكتاب ورحلت، رحلت وأخذت شيئًا أغلى بكثير من الكتاب لكنّها لم تدفع ثمنه، لقد أخذت قلبه معها وثمن استرجاعه بالنسبة إليه غالٍ جدا، ثمن قلبه نظرة أبدية من عينيها.

(5)

عادَ إلى المنزل ووصل هاتفه إلى الإنترنت، فتحَ صفحتهُ على الفيس بوك ليجدَ أمامهُ أبياتًا لشاعره المفضل "عبد الله زمزم":

"إني وقعتُ ولم أبح يومًا لها

لم أقتربْ معَ أنني أبغيها

فحياؤُها واللهِ يَكبحُ جُرأتي

لكنْ غدًا سأدقُّ بابَ أبيها!"

كانت أبيات الشعر تحكي عنه، لقد رأى نفسهُ بيتين من الشعر كتبتهما "رحمة" بعينيها، فهمس لقلبه وهو يدثّره من رجفان الشوق لها:

- غدًا سأدقُّ باب أبيها.

في اليوم التالي تحدث لأمّهِ عنها فسُرّت بها، وكانت معرفته بأبيها سببًا كبيرًا في تيسير أمور الخطوبة بعد توفيق الله، سارتْ الأمور على نحوٍ سريع جدًا.

عندما أعلمها أبوها بالشاب الذي تحدث له بأمر خطبتها لم تتصوره أنّهُ هو أبدًا، وهي كانت ترفض بعد فكرة الزواج، لكن عندما أخبرها باسمه مدافئ الحياء كلّها كانت قد وُقدت على خدّيها الممتلئين.

كان يجلس بمنزل أهلها بجلسة الرؤية الشرعية، عندما دخلت وقدمت لهُ القهوة، فهمسَ لها ببسمة خفيفة:

- أنا أشربها حلوة فهل وضعتِ إصبعكِ بها؟!

داست على قدمه بحذائها ذي الكعب العالي فتألم بابتسامة، ثم ردّت بضحكة خجولة:

- لا وضعت الملح فاحذر إن كنتَ تشكو من ارتفاع الضغط دكتور أحمد.

وضعت طبق القهوة وجلست إلى جواره على استحياء وهي تفرك يديها من التوتر، لعلّها نوبةَ حب قد أصابت قلبها ببعض الرجفان العشقي، خرجَ الجميع من الغرفة وتركوهما ليتعارفا، وكانَ يعرفها من قبل صحيح!، لكن اليوم باستطاعتهِ أن يبوح بما لا تعرفهُ هي، أخرجَ من جيب سترتهِ الأنيقة رسالة مكتوبة بخط يده وموضوعة في ظرفٍ مطّوي، وناولها إيّاها وقال:

- حانَ الوقت لتقرئي عنكِ.

فتحت الظرف المطوي المملوء بأوراق الورد الأحمر المجففة، وأخرجت الرسالة وبدأت بالقراءة:

"على لحن البعد
أفتقدكِ..
وعلى لحن الشوق
أحِن لكِ..
وعلى لحن الأمل
سأعود..
سأعود ذات مرة
لأخبركِ..
أنّكِ كُنتِ أمنية المطر
وأني بعدكِ عشقت المطر..
وأنّكِ كُنتِ اختيار القدر
ومناجاة الله في عتم السحر..
وأنّكِ كُنتِ دعوة مجابة
وأحدثكِ عن خيرة الله لعباده..
وعن أنّكِ كُنتِ البداية والنهاية،
وكل تفاصيل القصة التي حبكها قلبي قبل عقلي".

كانت تقرأ نفسها في كل كلمة، شعورٌ جميل أن يكتب أحدهم عنك.. أن تكون لحروفهِ مدادًا فهذا يعني أنّكَ تعني لهُ الكثير، سُرّت لكلماته وسرّها أكثر وجوده بجانبها..

حطم حاجز الصمت الذي ساد بينهم، وهو يقول:

- والآن عدت.

في حفل الخطوبة همسَ لها عندما وضعَ المحبس في بنصرها:

- الآن اطمأن قلبي.

فبادرتهُ بابتسامة، وهي تقول:

- الآن ستكف عن مراقبة يدي إن كانت تضم محبسًا ما.

ضحكا سويًا، فهمسَ في أذنها ثانيةً:

- هذا لأنّكِ حسبتِ قلبي، وحبستُ قلبكِ.

(6)

الكتابة هي ملاذه الآمن من هذا العالم، مكانهُ الذي يعبر به عن ذاته دون تدخل أحد، وقد تحسبُ من طريقة كتابته أنّهُ لم يُخذل أبدًا، وأنّه ما مسّهُ ضرٌّ البشرِ قط، وعلى عكس ظنّكَ فإنّهُ قد خُذل كثيرًا، لكنّ الكتابة شيء ثمين جدًا بالنسبة له، وكلماته تِلك أغلى بكثير من أن يمنحها لمن خذله، فأن يكتب عن أحد فهذا يعني أنّهُ غالٍ جدًا عنده فما بالك ب "رحمة" التي تصنع سطور الحبّ التي يكتبها.

جلسَ ليكتبَ لها رسالة يُهديها إيّاها داخل باقة الورد في أحد اللقاءات بعد الخطوبة، وأصعب عملية في الوجود أن تختار مفردات تناسب الشخص الذي تحبه، تحاول أن تكتب وتكتب ثم تنظر إلى تلك الكلمات فتراها لم تلق بمقامهِ في قلبك بعد، فتحاول بعدها أن تشرح هذا ببقية حروفك فتفشل هي الأخرى أيضًا، فتكتب له أخيرًا كلمة "أحبك" لأنكَ تراها أبلغ من كل ما كتبته، وبعد معاناة طويلة لوصفها، وصفها بنصٍ متقن علّهُ يليق بها:

"لا بدّ إن رأيتها أن يسحرك اختلافها..

فيها شيء من حُسنِ الأميرات.. عفة التقيات..

فيها شيء من طيبِ الصالحات.. وحنكة العالمات.. براءة الطفلات.. ورقة العصفورات.. فيها من كل ورودِ الكون خصلة، سيستدعيك التسبيح برونق جمالها، والحمد في حظِّ لقائها، وتكون على لسان قلبك ما شاء الله كلّما لاح لك اسمها، وستحسب بالتأكيد أنّ رقة العالم بأكملها قد سكنت قلبها، ولؤلؤ البحر بشدة لمعانه قد برقَ في عينيها، وجمال مرجانه كلّه قد خُبئ في جوفها... ستصحو على حبات البن في عينيها، وتهدأ أعصابك على أصداءِ خطواتها، وتغفو عن بؤس الكوكب على ألحان الموسيقا في صوتها، طبيبة مختصة في طمأنينة القلوب وسكينة الأرواح، في علاجها حلاوة لمرارة هذا الزمن، ملح دموعها يُصدئ عقارب الساعات، وحرارة حزنها تحرق سعادة اللحظات، ستجعل عيناها منك شاعرًا، وستُخفي من فرط الغيرة وصفها عن نصوصك، ستصاب بفرط الحب فإيّاك وأن تقترب، ويلازمك ثقل الشوق فإيّاك وأن تبتعد، بسيطة لكن ليست عادية ولا أعرف كيف فهي معجزة من معجزات القلوب."

طرقَ الباب فاستقبلتهُ بودِّ المحب، سلّمها باقة الورد التي تحمل الرسالة ثم أدخلتهُ إلى غرفة الاستقبال..

عندما قرأت الرسالة، توردت وجنتاها بدفءِ الحياء ككل مرة، فبادرتهُ بالكلام:
- مبهرة للغاية، شكرًا لك.

أردفت قائلة:
- بالتأكيد أنّكَ تقرأ نوع رفيع من الكتب والروايات، أليسَ كذلك؟.
- بالتأكيد.
- وما هي؟.
- عينيكِ.
- أقصد أسماء تلك الكتب!.
همسَ لها وقتها باسمها ثم قال:
- أنا أقرأ جمالكِ ثم أكتب.

أردفَ كاسرًا صمتَ الخجل:

- من حسن حظي أني سأتزوج من فتاة قارئة.

- القراءة تمنحني الهدوء النفسي، الكتب مدرسة والكتّاب مدرّسون حقيقيون، لكن الناس في هذا الزمان باتت تعتبر الكتب أشباحًا.

أومأَ موافقًا لرأيها:

- تعلمين أنّ أغلب الناس اليوم تعتبر الكتب والروايات أمر قد بات من الأساطير، وهذا لأنّ تطور الحياة قد وفرَ للإنسان وسائل رفاهية عالية والناس باتت تُفضل اللقمة الجاهزة، فالأفلام والمسلسلات هي الأكثر متعة لديهم لسهولتها، إلا أنّ بعضها يشكل خللاً أخلاقيًا فادحًا.

كانت تهزُّ رأسها علامة أنّها توافقهُ على كل ما يقول، فعلقت على كلامه مثنيةً عليه:

- هذا حقيقيٌ بالفعل، وللأسف بعضهم يظن أنّ من يقرأ الكتب متخلف، ولو يدركون أنّ كل تلك الأفلام والمسلسلات والبرامج التي يشاهدونها مكتوبة من قبل الكتّاب وموجودة داخل الكتب، وأنّ التلفاز ما هو إلا وسيلة لإيصال تلك المعلومات.

فقال "أحمد":

- أحسنتِ القول، التلفاز ومواقع التواصل بما تحتويه من مقاطع مصوّرة ليست إلّا وسيلة لإيصال المحتوى المكتوب، ولو عرفوا ذلك لقدروا عمل الكاتب بكل امتنان.

علقتْ "رحمة":

- تابع بنفس الشغف ولا تلتفت إلى تلك الأمور، أخلص عملكَ لله وستفلحُ بإذنه، رأي بعض الناس لاسع لكنّهُ غير ضروري فاللهُ هو من سيحاسبنا لا الناس.

تابعتْ كلامها بشغف:

- أنتم -أي الكتّاب- جنود مجهولون، كالمسلسل الذي يعمل فيه كل طاقم التمثيل، ثم لا يذكر الناس بعدها إلا جهود الممثلين، ومن ثم يُوضع اسم الكاتب بخط صغير مع باقي الأسماء في الشارة.

فردّ "أحمد":

- قرأتُ مرة اقتباسًا يقول:

"التاريخ لا يذكر إلا القادة، فكن قائدًا لا جنديًا"

ثم قرأتُ بعدهُ اقتباسًا آخر، وكأنّهُ يردُّ عليه:

"نعى السائب بن الأقرع إلى عمر بن الخطاب شهداء المسلمين في معركة نهاوند فعدّ أسماء من أعيان الناس وأشرافهم، ثم قال السائب: وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين، فبكى عمر وقال: وما ضرهم ألا يعرفهم عمر؟! إن الله يعرفهم"

فحقًا معرفة الله بجهودِ العبد هو الشيء الوحيد الذي يجب على المرء أن يسعى له، وما ضرّهم ألّا يكونوا مشهورين في الأرض، فالشهرة الحقيقية في السماء.

سألتهُ بعدها:
- والآن أجبني ما الكتاب الذي قرأتهُ في حياتك فشعرتَ به بنقلة نوعية في عالم الكتابة؟
فأجاب بلهجة حمد:
- الكتب التي قرأتها كثيرة ولا شكَ أنّ لها دورًا كبيرًا في صقل كتابتي، لكنّهُ كتابٌ واحد مختلف عن كل الكتب، هو القرآن.
أضاف "أحمد" موضحًا:
- القرآن هو كلامُ الله وهو الكتاب الأعظمُ بلاغةً، فهو كما وصفه الرافعي "حاكم مملكة اللغة العربية"، وبما أنّ القراءة هي اللبنة الأساسية للكتابة، فلا حجر أساس لها أفضل من القرآن، والقرآن هو منهجُ الحياة بأكملها، فمن أخذهُ بقوة كما طلبَ اللهُ منه فقد أفلح.
- جعلنا اللهُ من أهله.

(7)

كانا يجلسان ذات مرة في أحد مطاعم المدينة القديمة في دعوة من "أحمد" على العشاء، كانت الجلسة هادئة إلى أن قاطعتها أصوات قادمة من الطاولة المجاورة لهم، أصوات شجارٍ لزوجين يبدو أنّهما كانا عروسين جدد، تدخل أحد زبائن المطعم لحل المشكلة التي حصلت بينهما، وكانَ قد تناهى على أذن "رحمة" صوت الزوجة وهي تنتحب، وتقول لزوجها:

- لقد أخلفت وعدك لي!

فالتفتتْ "رحمة" إلى أحمد بنظرة قلقة وسألته:

- بما أنّكَ تكتب عن الحب وأكثرها عن علاقات الحب المثالية، فهل هذا هو تصور الكتّاب نحوَ الزواج؟

- لم يكن هناكَ علاقة حبّ مثالية بالكامل يومًا، ومن يقرّ بهذا فإنّهُ يتخلى عن جزء من بشريتهِ بشكلٍ صريح دون أن يعيَ أنّ كلّ ابن آدم خطاء، والخلافات التي تحصل بين المحب وحبيبه على قسوتها فهي ضرورية لتكشف قدره عنده.

- هذا صحيحٌ تمامًا، لكن لِمَ أول خلاف بين المحبين يكون ذا طابع قاسي لا يحتملهُ البعض؟

- يا رحمة عندما نحب شخص ما في هذا الكون، فقلبنا يميل تلقائيًا لأن يبرِّئَهُ من كل خطأ وعيب.. يحمل لهُ التبريرات ويقدمها له حتى قبل أن يُبررَ هو لنفسه، إلى أن يصلَ هذا الخطأ إلى دائرتنا فيتعدى خطوطنا الحمراء، فهنا نرى أنّ نار الحب قد اندلعت حينها بين القلب والعقل.

طالعتهُ بعدها بنظرة متسائلة:
- إذًا فالحبّ يُنحّي جزءًا من العقل؟!
تنهدَ "أحمد" ثم أجاب:
- كنتُ أقرأ مرةً في كتابٍ لابن القيم "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" عن اسماءِ الحبِّ، ما فاجأني حينَها ليست كثرة أسماءه وغرابتها، بل لفتني بدهشة أنّ "الجنون" أحد أسماءِ الحبّ.
نظرت بدهشةٍ هي الأخرى متعجبة:
- الجنون من أسماءِ الحبّ؟!
- نعم!
- كيف يكون ذلك وما علاقة هذا بحديثنا؟
- يقول "ابن القيم" عن الجنون في كتابه:
وأصل المادة هو الستر -أي اشتقاق كلمة جنون- أي أنّ كل ما اجتمع فيه حرفي "جن" في اللغة العربية فهو مستور عن العيون.
تساءلت "رحمة":
- وضح لي أكثر!
- حسنًا سآتيك بالشرح، يُكملُ ابن القيم في كتابه ويشرح أمثلة عن ذلك، ومنها أجنَّهُ الليل؛ أي ستره، ومثال آخر هو الجنين، وهو أيضًا مستور لا يُرى بالعين، والجنّةُ أيضًا فهي مستورة عنّا ولا تُرى، ومنه عن مخلوقات الجنّ فهي لا تُرى أيضًا.
أطلقَ "أحمد" زفيرًا، ثم أردف:
- لهذا يقولون أنّ بعضَ الحبِّ يصل إلى درجةِ الجنون؛ أي أنّ قلبَ المحبّ يتولى قيادة الحبِّ حينها ويُنحي العقل الذي يكشفُ لنا عن عيوب الخلق.

سألت "رحمة":

- وهل من الضروري أن يصلَ كل حبٍّ إلى درجة الجنون، وأن تغلبَ العاطفة العقل؟

- ليسَ هذا وارد دائمًا، أحيانًا يحبُّ المرء شخصًا يتفقُ عليه العقل والعاطفة معًا، لكن يبقى هذا الستر عن العيوب وإن كان متفاوتًا، مرافقًا دائمًا للزوجين طيلة حياتهما الزوجية، وهذا الستر من اللطف الخفي تخيلي**!**
تعجبتْ "رحمة" من كلامه، فقالت:

- وكيف ذلك؟**!**

شرحَ لها أحمد موضحًا:

- يقول اللهُ عزَّ وجل في كتابه الكريم:

{وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآياتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}..

"لقومٍ يتفكرون" ولو تفكرنا في قوله تعالى "مودة ورحمة" لوجدناهُ لطفًا خفي.
تابع "أحمد":

- من الطبيعي أنّ أي شخصين في هذا الكون، ومع مرور الوقت سيكتشفان عيوب بعضهما البعض، فما بالك بالزوجين اللذين يعيشان معظم حياتهما سويًا، فالمودة والرحمة من ألطافها ستر عيوب الزوجين عن بعضهما البعض.
علّقت "رحمة" على كلامه:

- هذا حقيقيٌ بالفعل، وفي كل العلاقات الإنسانية، فالحمد لله على لطفه.

حاوطت "رحمة" يدي "أحمد" وخشيةُ الخلاف بينهما قد غمرت عينيها، ثم قالت:

- عدني أنّ خلافاتنا وإن لا قدر اللهُ وحصلت فلن تكونَ طويلة، وأنّنا لن ننسى الفضل بيننا بساعةِ خلاف!

ابتسم لها "أحمد"، وهو يقول:

- لا قدر اللهُ هذا، ولكني سأكتفي حينها بوضع قبلةٍ على جبينك.

ضحكت "رحمة" لقوله، فقالت:

- وهل أعتبرهُ اعتذارك الدائم؟

همسَ لها أحمد بابتسامة:

- ونصٌ أصفكِ به لأعتذر لجمالكِ عن حماقة الخطأ مع قلبكِ.

أطرقت رأسها ونوبة من الحياء قد غمرتها.

(8)

اليوم تنهي مرحلة جديدة من حياتها كانت قد بدأتها، فاليوم تُعانق حلمًا كانت ترسمهُ لخمسِ سنواتٍ كاملة سبقتها اثنتا عشرة سنة دراسية، لوّنتهُ بأقلامها الخاصة، بتعبها وسهرها، بأرقها وجهودها، سترتدي ذاك الزي الذي سيُثبتُ بأنّها كانت قوية، كان الطريق صعب، نعم! لكنّها وصلت!، وستُلقي اليوم مع قبعة التخرج كل ما ساورها من ألم، وكل ما ألمَّ بها من تعب، وستكون تلكَ العباءة شاهد فخرٍ وقدوة لأطفالها.

لكن أيضًا هناكَ شوكة في حلقِ هذا الإنجاز، غصّة يفوقُ ألمها فرحة الحلم، كانَ غيابهُ عن فرحتها حزن.. حزن يُصارعهُ الأسى، لم يكن إلى جانبها في حفل تخرجها ليفخرَ بها، وينتقي معها اللباس المناسب، ويُحضر لها باقة الورد المكللة بالتهاني، كانَ "أحمد" مجرد أحلام وردية رسمتها في مخيلتها، لكنّهُ خذلها، هدمَ ما بنتهُ عنهُ من أحلام.

شهرٌ كامل كان قد مضى وهو لم يُكلف نفسهُ بكلمة اعتذار، وهي تعلم أنّهُ لو قالها لن تستطيع أن تمحوَ كلامهُ الجارح من بالها، كانَ يُجيدُ الكلام الجارح بنفس مقدار الفن الذي يجيده في الغزل، لكن ماذا؟! هل من أول خلافٍ تركها، هل نسيَ كلامه؟ حكى لها كثيرًا عن البرِّ ونسيَ نفسه.. كانَت ذكرى لقائهم في المطعم وكلامهم عن الخلافات قد أضرمت النار في صدرها من جديد في صباح هذا اليوم.

على الضفةِ الأخرى لم يكن "أحمد" قد نسيها كما حسبت، ولم يكن اعتذارهُ المتأخر عن المجيء سببًا في أنّهُ لا يحبّها، كيف يمكن لهُ أن يبغضها أساسًا وهي قلبه! أيبغضُ المرء قلبه؟!

كانَ يعلم أنّ قلبها ينزُّ ألمًا لكلامه، يرافق أحلامها فيحولها إلى كوابيس، وكانَ اشتياقه إليها يصرعهُ ويُصارعهُ في آنٍ واحد..

لكنّهُ في كل مرة يجهز فيها اعتذاره يراوده الأسى، فيتساءل في سريرته: كيف ستقبل الاعتذار؟ كيف بإمكان كلماته أن تعوضها عن سوء ظنّه بها؟ كان يتخبط بين وساوسه وهو يقول لن تقبل!.. يتألم لفقدها، يتألمُ كلّما تذكر كلامهُ الجارح لها، إن كانَ هو ما استطاع أن يسامح نفسه! فكيف بإمكانها هي أن تسامحه؟!

اليوم فرحةُ عمرها، يومٌ ليسَ كسائر الأيام، بالتأكيد أنّ الفرحَ باستطاعته أن يعطيها القدرة على العفو، قررَ أن يذهبَ إليها، فيُلقي بحبّه وأعذاره على بابها، وإن لم تفعل فالعمر طويل، سيطرقُ بابَ قلبها كل يوم إلى أن يموتَ، فعلّها تقبل يومًا!

طرقَ حديثهم عن الخلافات الزوجية أبواب ذاكرته، لا ذاكرة عقله بل تلك الذاكرة التي تختلجُ في صدره، يتذكر أيام الوصال، ينعمُ لذكراها ويتألم بفقدها في آنٍ واحد، غابت عيون "رحمة" عن حياته، وغابَ معها شعور الرحمة.

سيكتبُ لها اعتذارًا، ولو بوسعهِ أن يخطّهُ بدم قلبه سيفعل، يُريد منها أن ترى الندم في قلبهِ قبل أن تراه في عينيه، أمسكَ قلمهُ ليحكي، لكنّهُ فكر ماذا يقول! وكيف يعتذر؟!

أتُشفي كلماته جرح قلبها كما أذتها؟، بدأ يكتب ويكتب.. فاض بندمه على الورق، لكنّهُ فكرَ أخيرًا سيكون الاعتذار أكبر من هذا، سيكون قبلة.. جلسَ ينتظرها حتى تأتي، كانت الدقائق تمر كوقعِ السيف على قلبه وهو يتساءل: تُراها تقبل؟

شعورٌ غريب كانَ قد اعتراهُ حينَ أقبلت، كانت متألقة وفاتنة أكثر من أي وقت مضى، لكنَ الأناقةَ لم تنجح في إخفاء حزنها الذي يطفو على تقاسيم وجهها.

وقفَ أمامها وبيدهِ وردة حمراء، تمامًا كما يفعل في معظم المواعيد معها، قدمها لها فأشاحت بوجهها عنه، فأعطاها ظرفًا فيه ورقة، وتذكر لحظة أعطاها الظرف في منزل أبيها.. لكنّها لم تفتح الظرف هذه المرة.

سحب الظرف مرة أخرى والتقط القبعة التي تحملها بيدها..

وضع القبعة على رأسها ووضع قبلة على جبينها، وفتح الظرف وقرأ الورقة:

- أحبّكِ، فهل تقبلين حبّي عوضًا عن الاعتذار؟

شيءٌ ما بداخلها كانَ قد ابتسم وقتها، أعادَ لها الفرح وأضاءها بعد عتمة طويلة، لكنّهُ أبى بكبرياء الأنثى أن يرتسم على وجهها، فخاطبتهُ بلهجة معاتبة:

- لقد تأخرت!

- خشيت ألا تقبلي اعتذاري، لقد أخطأت بحقك إلى الحد الذي لم أستطع أن أسامح به نفسي، فكيف بكِ أن تسامحينني؟

أخذت الدموع تنهمر من مقلتيه، تعانقا بحرارة حتى أذابوا جبال الجليد التي كانت بينهم، وعادت حقول الربيع تُزين حبّهم.

الختام:

كانتَ "مريم" تتوسط المجلس بينهم وهي تقلب ألبومات الصور القديمة، كانت ترى والديها وهم صغار وتضحك بدهشة لكل صورة وهي تتساءل بدهشة:

- بابا.. ماما.. أهؤلاء أنتم؟!

أمسكت صورة قديمة بعقد قران والديها، كان "أحمد" يُطعم "رحمة" قطعة حلوى بيده، وصورة أخرى كانت في الحافلة، علّقت "مريم" على صورة الحافلة:

- إلى أين كانت الرحلة وقتها؟، ولِمَ اخترتم الحافلة؟

طالعَ أحمد "رحمة" بابتسامة فيها الكثير من الحب، ثم قال مخاطبًا "مريم":

- هذه الصورة في أحد رحلاتنا إلى مكة المكرمة، واخترنا الحافلة لأنها المكان الذي رأيتُ فيه أمّكِ أول مرة.

- وهل احببتها منذ ذلك الوقت؟

- قد لا أكون أحببتها منذ ذلك الحين، إلا أنّها علقت في ثنايا قلبي من وقتها.

ضحكت "رحمة" لتلك الذكرى، لقاء الحافلة.. الصيدلية.. المكتبة.. ومنزل أبيها، لقد مرَ العمر بسرعة.

كانت الصورة الأخيرة لأمّها ببدلة التخرج وإلى جوارها "أحمد"، وعلى الناحية الخلفية للصورة كانَت هناكَ عبارة مكتوبة بخطٍ أزرق عريض: "أحبّكِ، فهل تقبلين حبّي عوضًا عن الاعتذار؟!"

سألت مريم أمّها:

- هل سامحتِ بابا وقتها؟

- نعم!

- وهل كان خطؤه كبيرًا؟

- لربّما، وقتها فقط.

- وكيف سامحته؟!

- لعلّها المودة والرحمة.

ضحكَ أحمد لكلمتها بامتنان، وانتقلت عدوى الضحك لتصيبهم هم الثلاثة، والتقطوا أخيرًا صورة أضافوها إلى ألبوم الصور الذي يحفظُ ذكرى حبّهم.

-تمّ والحمد لله-

كلمة شكر:

الكتابة نعمة لذلك أول من أشكره عليها هو الله سبحانه وتعالى، فالحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

و"لا يشكر الله من لا يشكر الناس"..

هناكَ جنودٌ مجهولون وراء كل كلمة في هذا الكتاب، بعضهم ساهمَ برأيه والآخر بجهوده وكلّهم ساهموا بكلمتهم الطيّبة..
إليكَ الشكر قارئ كتابي الأول، وإلى أشخاصٍ كُثر لن أستطيع أن أحصيهم بفضل الله وكرمه، وعلى وجه الخصوص:
- فريق ريشة طالب طب "عائلتي الثانية".
- فريق سماعة حكيم الإعلامية.
- متابعين ريشة طالب طب.
- إلى كل من أهداني كلمة طيّبة عن كتابتي، وإلى كل من قال لي: أكمل ستصل..
- أصدقاء كُثر سيعرفون أنفسهم جيدًا حينَ يقرؤون كلمة الشكر، ومنهم:
"أمير-عثمان-فارس-ليث-عبد الرحمن- عوض-محمود".
- وشخصٌ كُتبَ بينَ طيتي الكتاب.

"إنه ذاك السؤال الذي يراودُ قلبي عن نفسه،

ولا أعرف جوابه إلا من بريق عينيها الدافئ،

وليطمئن قلبي أو لِيُطربَ مسمعي ..

لا أعلم

فكلا الأمرين مُنتهاهما واحد إلى كلمة أتوق إلى سماعها منها "أحبك"

تلك الكلمة التي لطالما أصمّها عن مسمعي كبرياء الأنثى الغريب..

"الحب فلسفة قلبية لايفهمها عقل المحب"،

كانت تلك كلماتٌ سريعة التقطتُها خلسةً من خزانة الحب،

محاولاً إقحام هذا الشعور الغامض بالفلسفة، لأفتح لنفسي باب السؤال ."

بشار طيفور

غلاف: لبنى التكله